

ظهور برداليان

تأليف
ميشال زيفاكو

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

ظهور باردالیان

ميشال زيفاكو

ظهور باردليان

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
ص. ب. ٨٧٣٧

الطبعة الثانية

١

الزواج

في احدى غرف المنزل الكبير التي تطل نوافذه على حديقة واسعة غناء ، جلس شيخ كبير بينضت الاعوام وجهه ، وأحنت الهموم رأسه •

كان بادي القلق ساهي الطـرف ، يسأل عن ابنته بين وقت وآخر ، فتجيبه الخادمة انها في الحديقـة يا سيدي ، تتمتـع بالربيـع والارض المخضوضرة •

واستدار الشيخ قليـلا ، فشاهد حصن أسرة مونتمورانسي قائما أمامه ، فبرقت عيناه حقدا وغضبا ، وقال يناجي نفسه :

ــ لقد غلبتني على أمـري يا صاحب الحصن وامـير الجيوش ، وسلبتني ضياعي واملاكي ، فلم يبق عنـدي غير هذا المنزل الذي أعيش فيه ، ولست استبعد ان يستفزك الحقـد فتعمد الى اختلاسه ، فأصبـح طريدا شريدا •• اي ابنتي •• اين انت ؟ وما سيكون شأنك فيما لو نفذ امير الجيوش وعيده ، وطردنا من منزلنا ؟

ودمعت عيناه فمسحها بمنديل في يده ، وفجأة سمع صوت خطوات في الحديقة ، فرفع رأسه فشاهد فارسا يترجل عن جواده ويدخل عليه •

فقال في نفسه :

ـ انه ولا شك رسول امير الجيوش •

ولما مثل الرسول امامه حنى رأسه احتراما ، وقال :

ـ اني رسول امير الجيوش احمل اليك بلاغا •

وارتعد الشيخ ومضى الرسول يقول :

ـ واني لمتأسف ان اكون نذير سوء ، ورسول شر ، ولكن ما حيلتي ، وقد وقع اختيارهم علي لابلاغك نسخة من الامر الصادر من البرلمان في باريس مساء امس ، اي في الخامس والعشرين من شهر نيسان سنة ١٥٥٣ وهو يقضي بتجريدك من هذا المنزل الذي تقيم فيه ، ومن الارض التي تحيط به ، وهي الارض التي منحك اياها الملك لويس الثاني عشر ، لترد الى أسرة موتتمورانسي ، في مدة شهر من هذا التاريخ •

وحاول الشيخ ان يتمالك أعصابه فلم يوفق •• لقد كان القرار من الهول بحيث فقد أعصابه ، وصاح بصوت متأثرا :

ـ مولاي لويس الثاني عشر •• ايها الملك العظيم فرانسوا الاول ، ألم تسمعا ما يقوله هذا الرسول الذي يحمل الذل والفقر الى من سفك دمه في سبيل مجديكما ، وخاض اربعين معركة دفاعا عنكما •• انظر الى هذا الشيخ كيف يطرد من أرضه ، وتسد أبواب الرزق في وجهه •

وتأثر الرسول لما سمع ، وخجل من نفسه فانسل هاربا ، بعد ان ترك البلاغ على كرسي قريب •

وأحس الشيخ دي بيانس بهول النكبة •

لقد كان سيد جميع (بيكارديا) ••• فما زال امير الجيوش موتتمورانسي ينتزع منه الارض بعد الارض بما له من النفوذ والسلطان حتى لم يبق له غير هذا المنزل والارض التي حوله ، وهي ارض شحيحة صغيرة ، لم تكن تكفي لمقومات حياته ، هو وابنته ، حتى جاء امير الجيوش

الآن ينتزعها منه ، ويطرده هو وابنته منها شريدين فقيرين .

وتذكر الشيخ ابنته جان ، وهو لم يكن يعيش الا لأجلها ، وكانت فتاة في السادسة عشر من العمر ، بلغت من الجمال اروعه ، ومن السحر اعظمه ، لا ترى العين مثلها حسنا ولا جمالا وقواما ..

★ ★ ★

وكانت (جان) قد خرجت في الساعة السادسة من هذا اليوم كما كان من عادتها ان تفعل دائما الى الحديقة ، وانسلت الى غابة الكستنا ، وهي تدور بنظرها حولها وتقول :

ــ هل تراني أجسر على أن أعترف له الليلة بسري الهائل المخيف ؟

وفيما هي في شأنها هذا أحست بيد تجذبها اليها ، وفم يطبق على فمها ، فصاحت :

ــ فرانسوا .

ــ ومن تريدين ان يكون غيري ايتها الحبيبة .. وكان المتكلم شابا في مقتبل العمر ، يتألق البشر من وجهه ، والجمال من قدامه وخلفه ، قويا ، لطيفا ، جذابا .

وكان هذا الفتى فرانسوا دي مونتمورانسي الابن الاكبر لامير الجيوش ، الحاقد على الشيخ والد (جان) ، الذي انتزع منه أرضه الواحدة بعد الاخرى ، قد هام بحب جان وهامت به ، واخذا يلتقيان بين وقت وآخر في الحديقة في غفلة عن الانظار والعيون .

ومضى العاشقان يتمشيان في الحديقة ، يتناجيان ، ويتحدثان وجان تقول بين وقت وآخر .. انها خائفة ، فيهدىء فرانسوا من روعها ، ويقول دهشا :

ــ مم تخافين ايتها الحبية وانا معك ؟

قالت :

ـ اني اشعر بالخوف منذ ثلاثة اشهر ، بعد ان احسست انصدري اخذ يخفق ويهتز •

ويمضي الفتى يهدىء روعها ، ويقول لها ••• سوف تكونين قريبا امرأتي امام الله والناس ، فلا تجزعي ولا تخافي ••• وليس يهمني العداء القائم بين أبوينا ، فاطمأني ولا تقلقي •• لو ان العاشقان لم يكونا في شاغل بحبهما لسمعا قهقهة عالية ، حملها الهواء من بعيد ، ولكن الحب أنساهما كل ما حولهما ، فلم يسمعا ، ولم يحذرا •

وطلبت الفتاة من فرانسوا ان يزورها عند مرضعتها عند منتصف الليل لتتحدث اليه بسرها •• وتقص عليه الخفي من أمرها •

ووعدها الفتى ان يفعل ، وبعد ان ودعها مضى في سبيله •

فوقفت تشيعه قليلا ، حتى توارى عن الانظار ، فسارت نحو منزلها تفكر في الموعد الذي ضربته له هذه الليلة •

وفيما هي كذلك برز من بين الاشجار فتى في العشرين من عمره ، ما إن رأته حتى صاحت خائفة :

ـ أهذا أنت يا هنري ؟

فأجابها بصوت قاس شديد :

ـ نعم انا هو الشقي بغرامك اليائس من حبك ، لماذا تبدين خائفة مني ، أليس من حقي أن أكلمك مثل أخي ؟ ثم لماذا تفضلينه عليّ ، وما سبب جفائك واعراضك عني ؟

ورفعت الفتاة رأسها بانفة وقالت :

ـ اني أحبك يا هنري حب أخ لأخيه ، واما شقيقك فرانسوا فقد وهبته حياتي وقلبي ••• وللتدليل على صدقي في حبك وبرك ••• لم أتحدث الى فرانسوا بأمرك ، ولا باعتراضك لي دائما وابدا •

ـ انك تكتمين غرامي بك عنه رحمة به ، وما عليك الا ان تخبريه بالحقيقة ، ليجرب سيفه مع سيفي .

قالت بغضب :

ـ لا تعد على مسامعي مثل هذا الكلام فأنسى انك شقيق من أحب .

ـ بلى انا خصمه ومزاحمه لا شقيقه .

واتقدت عيناه حقدا وغضبا ، وقال :

ـ ألا تزالين تصرين على جفائي ، وترفضين حبي ، اذن فاحذري .

فاضطربت جان ورفعت عينيها للسماء وهي تقول :

ـ أرجو ان يقع وعيدك عليّ لا عليه .

فاضطرب هنري لما سمعه منها ، وقال لها :

ـ الى اللقاء ايتها الحسناء .

ومضى في سبيله وروح الانتقام تشتعل في صدره ، وسارت جان نحو المنزل ، وبعد لحظات شعرت بحركة في احشائها ، فارتعشت وخافت، وركعت على الارض وهي تقول :

ـ رباه اني لم اعد وحدي في هذه الدنيا ، فان في احشائي طفلا يريد الحياة لا الموت .

★ ★ ★

عصفت حب الانتقام بصدر (هنري) ، فلم يعد يطيق صبرا .

فمضى الى منزل الشيخ دي بيانس وطرق على النافذة ... وكان الشيخ في هذه الاثناء يسير كالمحموم في غرفته لا يدري ما يفعل ولا ما يعمل بعد ان يغادر منزله ، ويصبح من المشردين .. وما يكون مصير ابنته والى من يلجأ بها .

ولما سمع الطرق سمّر في مكانه ، وأخذ يسأل نفسه فيما اذا كانت هذه نكبة جديدة يحملها اليه القدر ايضا •

ذهب الى النافذة يفتحها ، فشاهد هنري دي مونتمورانسي ابن ألدّ أعدائه ، فاهتز واشتد به الحقد ، فذهب الى غرفة مجاورة يضع فيها سلاحه ، فجاء بسيفين وضعهما على الطاولة •

وكان هنري قد قفز من النافذة ، فأصبح في داخل الغرفة ، وهزّ الشيخ رأسه مشيرا الى احد السيفين ، فأمسك هنري بساعد الشيخ وقال :

ــ اني لم أزرك لأبارزك واو فعلت لقتلتك ، ولكني لا أحمل لك حقدا في صدري ، ولا ذنب لي اذا كان والدي قد عمل على افقارك وتجريدك من ثروتك •

فصاح به الشيخ :

ــ ما الذي جئت تفعله اذاً ••• ان وجودك هنا اهانة لي ••• ام ان اباك ارسلك ليرى فيما اذا كان الشيخ لا يزال حيا بعد النكبة التي دهمه بها ؟

فمسح هنري العرق الذي كان يتصبب من جبينه وقال :

ــ لقد أتيت لاخبرك بآخر الكوارث التي نزلت بك من أسرتنا ، ان ابنتك رضيت ان تكون خليلة فرانسوا دي مونتمورانسي •

بلغ الغضب بالشيخ اشده ، وحاول ان يصفع هنري ، فأمسك هذا بيده ، وصاح به :

ــ ولتعلم ان ابنتك الآن بين ذراعي أخي ••• تعال اذا لم تصدقني، وأنظر بعينك •

وجرّ الشيخ بيده الى غرفة ابنته، فاذا هي فارغة وليس فيها انسان، وكانت جان قد غادرتها للاجتماع بفرانسوا في منتصف الليل عند المرضعة

كما تم الاتفاق بينهما •

وعندئذ صعد الدم الى وجه الشيخ ، واشتد هول الفضيحة عليه ، فسقط أرضا ، وأسرع هنري لما شاهده على هذه الحالة يغادر المنزل هاربا •

وكانت جان في هذه الاثناء قد وصلت الى منزل المرضعة ، ووقفت بالقرب منه ، تنتظر حبيبها ، الذي وصل في هذه اللحظة ، واسرع اليها يعانقها ويقبّلها ، ويقول لها :

— ان الوقت قصير يا حبيبتي هذه الليلة ، فقد أتى فارس الى الحصن يخبرنا ان والدي سيصل بعد ساعة ، وعليّ ان اكون في استقباله ••• فقصي عليّ قصتك ، واعلمي انك تتحدثين لزوجك •••

وأشرق وجه جان لما سمعت كلامه ، وأرادت ان تقول له بأن في قلبها جنينا ••• ولكنها سمعت في هذه اللحظة صيحة هائلة فارتجفت ورعبت وصاحت :

— هذا صوت ابي يا فرانسوا ولا بد أن هناك جماعة يحاولون قتله •

وأسرعت نحو البيت لا تلوي على شيء ، فوصلت بعد ثوان ، فوجدت والدها جالسا على المقعد في الصالة الكبرى وهو في حالة ذهول، فطوقته بذراعيها وصاحت :

— ابي •• ابي •• اني ابنتك جان •• وفتح الشيخ عينيه في هذه اللحظة ، والقى على ابنته نظرة احتقار ، ولم يقل شيئا ، فأدركت انه عرف سرها ، فجثت امامه على ركبتيها تعترف له بما أخفته عنه ، فلما انتهت من اعترافها ، امسك بيدها ، وذهب بها الى الباب وقال :

— اذهبي في شأنك فلم يعد لي بنون•• ومادت الارض من تحتها••

واختنق صوتها فلم تعد تطيق كلاما وسمعت في هذه اللحظة صوتا يقول من خلفها :

ـ لقد أخطأت يا ابي •• فلا يزال لك ابنة وابن •

وكان المتكلم هو فرانسوا دي مونتمورانسي ، الذي تقدم الى الشيخ وأمسكه بيده وقال له :

ـ أتريد ان تقبلني زوجا لابنتك وولدا ؟

فصاح الشيخ :

ـ أتريد أن تتهكم عليّ بعد أن فضحتني ؟

ـ أبدا اني اقول الحقيقة ، وانا احب ابنتك وأريد ان تكون زوجة لي •

فقال الشيخ :

ـ ولكنك ابن امير الجيوش ، وانت تعلم ما بيننا من الخلاف والعداء ؟

فقال الشاب :

ـ ولكن زواجي بابنتك سيزيل هذا الخلاف ، قل كلمتك يا ابي ••• فان سعادتي وسعادة ابنتك بين شفتيك •

ففرح الشيخ ، وكاد يبارك العاشقين ، ثم خطر له خاطر فتردد ، وسأل فرانسوا :

ـ متى سيكون عقد الزواج ؟

فقال الشاب ، وقد أدرك ما يجول بخاطر الشيخ :

ـ الآن !

وكان الخدم قد أفاقوا ، فأمرهم فرانسوا بحمل الشيخ الى الكنيسة ، ليعقد لهم كاهنها ، عقد قرانهم •

وبعد دقائق عشر ، كان كاهن كنيسة (مار جنسي) يصلي صلاة

الصباح ، وخلفه فرانسوا وجان وورائهما والدها الشيخ وخــدم المنزل وبعض المصلين القلائل .

ولما فرغ الكاهن من الصلاة، عقد زواج العاشقين وباركهما، وربط بينهما بهذه الصلة الابوية السماوية ، ثم عاد الجميع الى المنزل ، يحملون الشيخ معهم ، وكانت دلائل الفرح والسرور ظاهرة على وجهه .. باديــة في كل حركة من حركاته .

ولما ركعا امامه ليباركهما افتر ثغره عن ابتسامة عريضة ، ولم يستطع الكلام ، فرفع يده فوق رأسيهما ليباركهما ، ثم اغمض عينيه ومات .

لقد مات الشيخ من الفرح ، بعد أن كاد يقتله الحزن والاسى .

- ٢ -

الاخ الغادر

كلف فرانسوا المرضعة بالعناية بزوجته ، على ان يعود اليها صباحا بعد ان يشاهد والده ويتحدث اليه .

ومثل الشاب امام والده الذي كان جالسا في قاعة السلاح المفروشة بالسجاد الثمين والمتلألئة بالانوار والمشاعل ، وفيها صور اجداد امير الجيوش معلقة على الجدران ، وقد حفّ به عدد من رجاله لا يقل عن خمسين من قواده وحراسه .

وتقدم الشاب الى أبيه الذي لم يكن قد رآه منذ اشهر عديدة ، فحنى رأسه مسلما ، ثم أخذ مكانه الى يمينه ، فيما كان شقيقه هنري يقف الى يساره ، وليس من همه غير الكيد لشقيقه ولعروسه .

ولحظ فرانسوا ان والده امير الجيوش كان جاهم الوجه بادي التفكير ، فقدر ان في الجو شيئا ، فلزم الصمت ، ينتظر ما سوف يقوله والده .

وتكلم امير الجيوش ... فقال :

ـ لقد كان من المعتقد بعد ان خسر الامبراطور شارل الاسباني المعركة تحت اسوار مدينة ميتز في شهر كانون الاول الماضي ، ان لا يعود لحربنا ثانية ، وان لا تستطيع اسبانيا بعد هذه المعركة الوقوف على قدميها •• ولكن هذا الامبراطور الحديدي ما لبث ان نظم شمله ، وجمع جنوده وعاد ليحاربنا من جديد •

« وقد عرفنا البارحة انه في طريقه للاستيلاء على (بيكارديا) وان قوة من المدفعية تزحف نحو (تيروان) فان استطاعت فتحها ، فكأنها تمكنت من فرنسا ••• ولهذا تم الاتفاق بيني وبين جلالة الملك هنري الثاني ، ان يحتشد جيشي في باريس حتى اذا انتهى من استعداده زحف لملاقاة العدو •

« وفي اثناء هذا علينا ان نرسل فرقة مؤلفة من الفي فارس ، تسرع الى تيروان لتدافع عنها ، وتمنع العدو من الوصول اليها » •

وصاح جميع القواد يؤيدون الفكرة ، وينادون للحرب والقتال •

وعاد امير الجيوش يتكلم فقال :

ـ وعليّ ان اختار لهذه الفرقة قائدا جريئا باسلا ، وقد وقع اختياري على اكبر اولادي فرانسوا •

وذعر فرانسوا حين سمع هذا الخبر ، وسأل والده بصوت قانط :

ـ اخترتني انا يا ابي ؟

ـ نعم •• لقد وقع اختياري اليك ، وعليك ان تقوم بانقاذ ملكك وأبيك ووطنك ، والفرقة التي اخترتها تقف الآن خارج هذا الحصن فتهيأ للسفر بعد ربع ساعة ، وتوجه على التو الى (تيروان) لتدافع عنها او تموت •

ثم التفت الى ولده الثاني هنري ، فأمر بالبقاء في الحصن ، والاستعداد للدفاع عنه ، حتى لا يهاجم على حين غرة •

ففرح هنري فرحا شديدا بهذا القرار ، وأدرك ان (جان) أصبحت تحت رحمته ، بعد ان خلا له الجو فلم يبق هناك من يحميها منه •

اما فرانسوا فقد حاول ان يعتذر لوالده ، او يحمله على تكليف غيره بهذه المهمة ، فلم يوفق ، فاهتاج وذعر وفكر في زوجته الصغيرة ، التي سوف يتركها وحيدة فريدة بعد وفاة والدها ، وقال لنفسه :

ــ يا للهول ••• كيف أتركها لمصيرها هذا ؟

واستبد الغضب بأمير الجيوش لما شاهد تردد ولده، وأمره بالاسراع الى جواده ، والمضي على رأس فرقته ، فلما طلب الشاب مهلة ساعتين او ساعة ، اشتد الغضب بأمير الجيوش وصاح به :

ــ فرانسوا دي مونتمرانسي ••• اني اقبض عليك بيدي ، لانك أهنت الاسم الذي تحمله ، وانت اول رجل من اسرة مونتمرانسي خاف الموت منذ خمسة اجيال •

وشمخ الفتى برأسه •

وقرر الذهاب الى الموت لينفي عن نفسه التهمة •• ونسي زوجته الصغيرة ، واحلامه ، وآماله ، وقال لوالده :

ــ لتنقض الصاعقة على من يقول ان ابن مونتمرانسي يخاف الموت •• سأسافر كما أمرت بعد ربع ساعة ، ولكني سأناقشك الحساب اذا عدت حيا •

ومضى والغضب يعصف بقلبه نحو الباب ، حيث طلب ان يعدوا له جواده ، ثم دعا شقيقه هنري اليه ، وأخبره بقصته ، وكيف انه عقد قرانه على جان دي بيانس ، وكيف مات الشيخ والدها منذ ساعتين ، فأصبحت الزوجة الصغيرة والحالة هذه فريدة وحيدة ••

تظاهر (هنري) بالذهول والدهشة ، كأنه لا يعلم شيئا عن علاقة شقيقه بجان ، ومضى فرانسوا يوصي شقيقه بزوجته ، وان عليه العناية

بها وتعهد مصالحها وحمايتها ، وطلب منه ان يقسم على ذلك •

فأقسم هنري وهو يرتعش •

ومضى فرانسوا يقول :

ـ أتقسم لي اني اذا عدت من هذه الحرب سالما ان اشاهد زوجتي في بيت والدها سعيدة ناعمة •• واذا مت ان تتحدث الى والدنا بسري وزواجي لتحصل زوجتي على كل اموالي •

اقسم هنري لشقيقه على الوفاء بعهده له، فانشرح صدر الاخ الاكبر، والتفت نحو منزل امرأته فبكى وقال :

ـ الوداع •••

ثم مضى يقود فرقته الى الحرب والقتال ، وهو يقول :

ـ هلموا بنا الى الموت ايها الابطال •

ـ الى الموت ••• الى الموت •••

وتنهد امير الجيوش لما سمع صوت ابنه ، وصياح الجنود ، ثم امتطى جواده ، وسار في طريق باريس ، تاركا ابنه (هنري) لحراسة الحصن •

★ ★ ★

أقبل هنري في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي لزيارة جان في بيتها ، فوجدها لا تزال جالسة امام جثة ابيها التي وضعت في القاعة الكبرى ، وهو يرتدي ملابسه الرسمية وحسامه بيده •

وظنت (جان) لما سمعت وقع حوافر جواد ان فرانسوا قد أقبل لرؤيتها كما وعد ان يفعل ، فأسرعت الى الباب فاذا بها تشاهد هنري امامها •• فوقفت دهشة ذاهلة لا تدري ما تقول :

وقال هنري :

ـ اني احمل اليك خبرا سيئا •

فارتعشت وقالت :

ـ ماذا حدث ؟

ـ لقد سافر فرانسوا •

ـ ولكنه سيعود بالتأكيد •

ـ بل انه لن يعود •

وضعت جان يدها على قلبها ، مخافة ان يتمزق ، فقد خشيت ان يكون فرانسوا قد تخلى عنها وتركها •

ـ لقد عادت الحرب فوقعت ، فطلب اخي من والدي ان يذهب لانقاذ المحصورين في (تيروان) وليس معه غير الفي فارس فكأنه قد التمس الموت وسعى له •• مفضلا ذلك على الانتحار ، لتسرعه في عقد قرانه بك ، ورفض والده الموافقة على هذا الزواج فقرر الموت على الحياة •

سقطت الفتاة أرضا من هول الصدمة ، ورفعت رأسها الى السماء وهي تقول :

ـ رباه ماذا اصنع بولدي ، ومن سوف يعوله ؟

وفكرت في الامر ثم قررت ان تذهب الى (تيروان) حيث يوجد زوجها ، ولكن هنري منعها ، واسرع يضمها الى صدره ، وهو يقول :

ـ لقد جبن وسافر وتخلى عنك ، فهو لا يستحق منك حبا ولا تضحية ، واما انا فأعبدك وأحبك حبا أقتل معه والدي ان اعترضني ومنعني •

ومضى في مثل هذا الكلام ، وهي تحاول جاهدة ان تدفعه عنها ، حتى تمكنت من تحرير نفسها فصاحت به ، وانبّته على عمله ، وردته ردا قبيحا ، فصاح بها :

ـ ألا تعلمين انك هنا في منزلي ، وان من كان في منزل سواه ، لا يتقيد بهذه القيود •

فلم تدرك جان غرضه ، وقالت :

ـ انت في منزلك •

ـ نعم وقد صدر امر من البرلمان بانتـزاع هذا المنزل من ابيـك وتسليمه الى والدي •

فلما سمعت جان منه هذا الكـلام اسرعت الى صندوق يضع فيه والدها أوراقه ، ففتحته وقرأت قرار البرلمان ثم القته ارضا وصاحت تدعو خدمها اليها ، فلما مثلوا امامها ومعهم بعض الفلاحين قالت :

ـ اعلموا اني لست هنا في منزلي •

فقال هنري مؤنبا :

ـ سيدتي •••

فلم تعبأ جان به وأمرت الخـدم والفلاحين ، فحملوا جثة أبيهـا ، وسارت خلفهم ، حتى وصلوا الى دار مرضعتها ، فدفنت والدها في مكان قريب •• ثم أغمي عليها وفقدت رشدها فكانت تهذي ، وتبكي وهي لا تعلم ماذا تفعل •

★ ★ ★

قضى هنري ليلة مريعة ، يندم فيها تارة على ما فعل ، ثم يستبد به الغضب حين يذكر طردها له ، وردها لحبه •• فيهتاج ويعود الى ثورتـه العارمة ، وحبه الشديد •

ذهب يرود في اليوم التالي حول منزل المرضعة فعلم ان جان مريضة، مرضا شديدا ، فسقط الخبر عليه سقوط الصاعقة ، ومضى يدور حول المنزل كل يوم مستطلعا اخبارها ، وغرامه لا يزيد الا ثورة وتوقدا •

ومضت أشهر وأتت الاخبار بسقوط مدينة (تيروان) بيد الامبراطور شارل الاسباني ، وابادة الحامية ، ومقتـــل فرانسوا شقيقه ، فعـــاد اليه الرجاء بعودة جان له بعد وفـــاة زوجها ، وحـــدث ذات يوم ان شاهدها بملابس الحداد من نافذة منزل المرضعة، تحمل طفلة بيدها تقبلها وتناغيها، فخطرت له فكرة جهنمية ، وهي ان (جان) قد شفيت من مرضها ، وان باستطاعته ان يخطفهـــا ويأتي بها الى الحصن كما كان يفعل النبـــلاء في تلك العصور •

وكذلك عاد الى الحصن وهو يدرس هذه الخطة في طريقه ، فشاهد فارسا مقبلا من بعيد ، فلما شاهده الفارس عرفه وترجل عن ظهر جواده، وأنبأه ان شقيقه فرانسوا قد تمكن من النجاة من الاسر ، وانه قد أرسله قدامه ، ليبشر أهله بنجاته ، وليطمئن من يحبهم الى مصيره •

وعندئذ تصعد الدم الى وجه هنري ، واخذ يهدد السماء بقبضته فقد كان من المفروض ان يقضي نجـــاة شقيقه على خطتــــه ، وان يفتضح أمره ، وما فعله من محاولة انتهاك شرف امرأة أخيه •

وكانت جان قد قضت أربعـــة أشهر في منزل المرضعة وهي تعـــارك المرض الذي ألمّ بها حتى تمكنت من التغلب عليه اخيرا ، وتماثلت الى الشفاء ولكن آلام الوضع ما لبثت ان عاودتها ، فعادت الى سريرها لتضع فتاة اسمتها (لويزا) باسم امها •

ومضت الايام والطفلة الصغيرة تنمو ، كالزهرة الحلـــوة ، فكانت جان اذا نظرت اليها تدرك انها ستكون آية في الحسن والجمال ، فتأسف لان والدها لم يرها ولم يشاهدها ، وتقول في نفسها :

ـــ يا الهي••• كيف ستعيش فتاتي هذه من غير أب ؟

« أحقا انه تركني وهجرني خوفا من العار الذي لحقه بالزواج بي•• أتراني لن أراه بعد اليوم ؟

« يا الهي لقد انقطعت أخباره عن الناس ، فهل هو لا يزال حيا ام مات في المعركة ؟ »

ومضى الشتاء وجان تلازم البيت لا تغادره الى الخارج مخافة ان تلتقي بهنري الذي كانت تخافه وتحتقره •

وأقبل الربيع ، وفي ذات يـوم من ايام شهر مارس ، غادرت المرضع البيت مع زوجها لجلب بعض الحطب ، وبقيت (جان) في المنزل مع فتاتها الصغيرة وحدها ، فسمعت قرع الباب ، فأسرعت تفتحه ، فاذا بها امـام عجوز يتسول ، فمضت الى المطبخ لتقدم له قطعة من الخبز ، دفعتها اليه معتذرة ، فشكرها ومضى في سبيلـه ، واقفلت جان الباب ، وعادت الى غرفتها وفتاتها ، فلم تجدها في سريرها ، فصاحت صيحة منكرة ، واسرعت الى الغابة تبحث عنها وقد أدركت ان شخصا قد اختطفها ، ومضت الساعات دون جدوى ، ودون ان تعثر على أثر لها ، فعادت الى غرفتها وقد همت بالانتحار لولا ان فكرت بصغيرتها •

وعندئذ سمعت صوتـا ، فاستـدارت فاذًا بها تشاهـد هنري دي موتتمورانسي يقفز من النافذة اليها ، فجمد الدم في عروقها وقالت :

ــ أهذا أنت ••• اني لا أراك الا في لحظات الشقاء والمحن •

قال لها :

ــ أنت تبحثين عن ابنتـك منذ ساعات ، ولن تجدينهـا ، لاني انا الذي اختطفتها ، وعليك ان تصغي اليّ الآن •

ــ اتخطف ابنتي ايها الشقي ، وتنتظـر مني ان اسكت •• سوف ترى ما تفعله الامهات •

وتقدمت نحوه فأمسك بيدها ، وقال :

ــ اصغي اليّ اذا كنت تريدين ان تشاهدي ابنتك •

قالت :

ـ رحماك رد اليّ ابنتي وسوف أعفو عن كل ما اجترمته وفعلته نحوي •

قال :

ـ ان ابنتك عند رجل من رجالي وقد اتفقت معه على ان اقف امام هذه النافذة وارفع قبعتي فيقتلها حالا •

وأسقط في يد الام المنكودة فسقطت أرضا ، ورفعت يديها خاضعة مستسلمة •

فقال :

ـ ان فرانسوا أخي قد عاد سالما الى الحصن ، وسوف أتهمك تهمة كاذبة أمامه ، فاذا أنكرت ما أقوله او فهت بكلمة ، رفعت قبعتي للرجل فيقتل ابنتك ، أنظري لقد أقبل أخي •

ونظرت جان عبر النافذة ، فاذا فرانسوا زوجها مقبل حقا ، فصاحت تستنجد به :

ـ اليّ ••• اليّ ••• يا فرانسوا •

فلما سمع هنري صرختها قال لها بصوت رهيب :

ـ اذا أردت قتل ابنتك فأنت وشأنك •

فانخلع قلب الام وقالت :

ـ رحماك لا تفعل ••• سوف أفعل ما تأمرني به •

وفتح الباب في هذه اللحظة ••• ودخل فرانسوا والارض لا تسعه من شدة الفرح والسرور •

★ ★ ★

كان فرانسوا قد أسر في تيروان اثناء المعركة ، ثم اطلق سراحه عند

عقد الصلح ، وعاد الى الحصن ، فاستقبله الجنود والضباط وأهالي الضاحية استقبالا حافلا ، ووقف حاكم المقاطعة يريد القاء خطاب يرحب بوصوله ، فقاطعه فرانسوا وسأله عن أخيه ... وكيف لا يراه في استقباله فأجابه انه في (مارجنسي) ، فقلق فرانسوا لوجود اخيه عند زوجته ، ولكن جواده متوجها نحو المنزل ، فلما وصل اليه وجده مقفلا ، فسأل شيخا وجده قريبا عن زوجته .

ـ انك تجدها هناك في منزل المرضعة يا مولاي .

فسأله فرانسوا :

ـ لماذا تدعوني مولاك ؟

فأجابه الشيخ :

ـ أليس هذا المنزل لكم الآن ؟

فسكت فرانسوا وأسرع يعدو بجواده نحو منزل المرضعة ، ودفع الباب فوجد جان في غرفتها فصاح صياح الفرح ، وبسط ذراعيه ليعانقها.

ولكن جان لم تتحرك من مكانها .

وبان الذعر على وجهها .. وحاولت ان تتقدم نحو زوجها فتعانقه وتقبله ، ولكنها نظرت الى هنري فوجدته ممسكا بقبعته ، حتى اذا تحركت اشار ... فكانت القاضية على ابنتها .

وأحس فرانسوا بأن قلبه يكاد يتمزق في احشائه ، وأخذ ينظر الى زوجته وأخيه ، وقد وقفا جامدين أمامه ، ثم تمالك نفسه وقال :

ـ اني لم أحب امرأة في حياتي حبي لزوجتي ، ولم يخفق قلبي الا لها ، ولما سقطت في المعركة كنت أردد اسمها على شفتي ، ولما اصبحت اسيرا ، لم اكن افكر الا فيها ، فلما أفرج عني ، كان من اسعد ساعات حياتي ان اجتمع اليها واقبّلها ، حتى اذا لقيتها ، وجدتها جامدة لا تتقدم نحوي ، ووجدت شقيقي لا يجسر على ان يرفع نظره اليّ .

وصعقت جان لهذا الكلام ، فقد كانت تحب زوجها حب عبـادة ، وتود من كل قلبها ان تندفع اليه وتقبّله ، ثم تتذكر ابنتها ، فتخشى ان تكون السبب في موتها •• وهي الطفلـة البريئـة التي لم تقتـرف اثما ولا ذنبا •

وتكلم هنري الآن ، فقال لأخيه ، انه قد اضطر الى طرد زوجتـه ، لانها خانته ، ودنست شرفه •

وهاجت جان وماجت وحاولت ان تتكلم ثم تذكرت ابنتها فسكتت•

وزأر فرنسوا وكاد يسقط أرضا من هول الصدمـة ، والتفت الى زوجته وسألها :

ــ أحقا ما يقول ؟

وخارت قوى المسكينـة فسقطت أرضا وهي تقول : « لأمت أنا ولتعش ابنتنا » • ثم أغمي عليها •

وغـادر فرانسوا المنزل على الاثر وقد اسودت الدنيـا في وجهه ، وسار هنري خلفه لا يأبه لما أصاب جان ، وهو يقول في نفسه :

ــ اذا عاشت فستكون لي ، واذا ماتت استرحت من عذاب الغيرة الذي سوف يلازمني ما دامت مع أخي •• وبين ذراعيه •

★ ★ ★

استشعر هنري في هذه اللحظة انه يبغض شقيقه بغضا عظيمـا ، لان جان فضلته عليه ، واحبته دونه •

وكان يشعر وهو يسير خلفه برغبة ملحة في المزيد من الانتقام منه ، فلما التفت فرانسوا خلفه ، وكانت قد هدأت ثورته بعض الشيء ، وشاهد هنري سأله عن حقيقة ما حدث وما جرى •

ـ وما الفائدة من ذلك ؟

ـ أريد ان اقتص من الرجل الذي خدعني •

فاضطرب هنري •• ثم برقت عيناه وقال :

ـ اتريد حقا ان تعرف اسمه ؟

ـ نعم •• واني آمرك ان تفصح لي عن اسمه •

ـ اذاً فاعلم ان امرأتك كانت تحبه قبلك ، وتفضله عليك ، ولم تقبل الزواج بك الا للقبك ومركزك •• فكانت خليلته قبل ان تكون زوجتك •

فأن فرانسوا انين القانطين •• حتى خافه هنري وتوقف عن الكلام •• فصاح به فرانسوا ليمض في حديثه •

فقال هنري :

ـ ولقد سارت العلاقات الغرامية بين زوجتك وهذا الرجل على احسن ما يرام في غيابك •• ولكنه لما علم بقرب وصولك قرر طرد هذه المرأة الخائنة ، واذا كنت تريد ايها الاخ العزيز معرفة اسم هذا الرجل ، فاعلم انه يدعى هنري دي مونتمورانسي •

- ٣ -

في طريق باريس

كان هنري دي مونتمرانسي قد كلف رجلا يعرفه هو الشفاليـه دي بارداليان بقتل ابنة جان حين يرفع قبعته امام النافذة .

وكان الشفاليه من اسرة محترمة فقيرة ، في الخمسين من عمره ، عانى الحروب ، ولوّحت الشمس وجهه ، طيب القلب عصبي المزاج ، يخاصم الناس لاقل سبب ، يبيع سيفه لمن يدفع المبلغ الارفع ، عاش حياته فقيرا يبحث عن الثروة فلا يحصل عليها .

وكان امير الجيوش قد تعرف عليه في اثناء بعض المعارك فاعجب بجرأته ، ودعاه الى حصنه ، حيث الحقه بخدمة ولده هنري .

وفطن هنري الى انه بحاجة الى رجل قوي البأس ، حديد السيف ، يعتمد عليه في مغامراته ، فلم يجد غير بارداليان لمثل هذه المهمات ، فقربه اليه بالنوال والعطاء ، حتى اصبح من اخلص المخلصين له .

ولما عرف هنري بان شقيقه فرانسوا في سبيله الى الحصن ، بعد ان اطلق سراحه ، خشي العاقبة ، وخاف افتضاح امره ، وشكوى جان أزوجها سوء اخلاقه ، وما حاوله من تقبيلها ، وطرده لها من المنزل ، بعد

ان وعد شقيقه بالمدافعة عنها وحمايتها ، فخطر له المكر بها وبشقيقه ، وكلف بارديان بخطف الطفلة ، ووهبه خاتما ثمينا ، وطلب منه قتلها عندما يرفع قبعته ، وقد ضاق صدر بارداليان من هذا الطلب ، فلم يكن دن عادته قتل الاطفال ، ولا سرقة الاولاد ، وقد فعل ما فعل اخلاصا منه لهنري وحبا به ، فلما عرف ما يريده منه تنكر لذلك ، وقرر ان لا يقتل الطفلة لو طلب منه ذلك ، وان يغادر الحصن ، عائدا الى حياته السابقة ، من التشرد والفقر .

ولكن اساريره ما لبثت ان اشرقت حين شاهد فرانسوا يغادر بيت المرضعة وخلفه هنري ، دون ان يكلفه الثاني بقتل الطفلة .

وغادر الحصن على الاثر ، حاملا الطفلة معه فلما بلغ منزله الكائن عند باب الحصن ، استقبله فتى صغير في الخامسة من عمره ، فابتسم بارداليان الاب له وقال له :

ــ لقد جئتك يا صغيري بطفلة صغيرة ستكون اختك .

ثم نادى خادمته ، ودفع اليها الطفلة لويزا ، ودعاها الى العناية بها ، وعدم التحدث بخبرها لاحد .

واسرع الغلام الى لوزيرا الصغيرة يضمها الى صدرها ويقبلها ، فتأثر بارداليان الكبير لهذا المنظر ، وفكر في ام هذه الصغيرة ، وما يكون عليه حالها بعد اختطافها ابنتها .. وفكر فيما يكون شأنه هو نفسه وحزنه فيما لو حاول احد اختطاف فتاه الصغير .

وضاقت به الدنيا حين وصل في تفكره الى هذا الحد ، فغادر المنزل الى منزل المرضعة ، ووقف تحت النافذة ، لعله يسمع صوتها ، او يشاهد وجهها .. وكانت جان في هذه اللحظة قد عادت الى نفسها ، وعادت تندب حظها ، وتبكي لاختطاف طفلتها ، ثم تقول متحدثة الى نفسها :

ــ ولكن هذا النمر الكاسر ، وعدني برد طفلتي اليّ اذا اطعته ولم

اكذبه امام شقيقه وهو لا بد ان يفعل •

« واما انت يا فرانسوا •• يا ملاكي المحبوب •• فلا تصدق كلمة مما قاله هذا الوحش ، فما كنت لك ابدا من الخائنين •

« ان هنري نذل سافل خطف ابنتي ، وفجعني بها •• اين انت يا صغيرتي ••• الا تسمعين نداء امك الحزينة الباكية ؟ » •

واصفر وجه بارداليان ، وارتعدت فرائصه ، وادرك هول ما فعله ، فاسرع الى منزله لا يلوي على شيء ، ونادى الخادمة لتوقظ صغيره ، وتلبسه ملابسه ، لانهم سيسافرون ، وتدعو الخادم ليحضر جواده ، ثم حمل الطفلة وذهب الى بيت المرضعة حيث تقيم امها •

وكانت جان لا تبرح تنادي ابنتها ، وتدعوها اليها ، والمرضعة ترجوها ان تذهب لسريرها لتأخذ لنفسها بعض الراحة ، والام ترفض ، وتصيح •• لويزا •• لويزا •• حتى لقد خيّل للمرضعة انها قد جنّت ، وكان ان وصل بارداليان في هذه الاثناء •

وكانت جان تحوم امام الباب ، فلما شاهدت خياله اسرعت اليه ، وانتزعت الصغيرة من يده ، وذهبت بها الى غرفتها وهي تقبلها ، وتبكي ، حتى اذا هدأت ورفعت نظرها وشاهدت بارداليان امامها زحفت على ركبتيها نحوه ، واخذت يده تقبلها ، وسألته كيف حمل ابنتها اليها ، فقال:

ــ لقد شاهدت رجلا اعرفه يحمل هذه الطفلة ، فسألته عن شأنها ، فلما حدثني بخبرها اتيتك بها •

ــ اذكر لي اسمك لاذكرك ما حييت •

ــ لا فائدة من معرفة اسمي •

فقالت :

ــ اذاً اذكر لي اسم الرجل الذي اختطف ابنتي واراد قتلها •• لالعنه الى الابد •

فارتعد بارداليان ، وعضّ على شفتيه ثم قال :
ـ ان هذا السفاك يا سيدتي يدعى الشفاليه بارداليان .
ثم غادر المنزل لا يلوي على شيء .

★ ★ ★

لما اصبح الشقيقان في الغابة ، التفت فرانسوا الى شقيقه وقال له :
ـ اذاً فأنت الذي خنت عهدي ، ومزقت عرضي ، فتأهب للموت .
وذهل هنري لما سمع الانذار ، والتحم الشقيقان وتمكن فرانسوا من شقيقه فطعنه طعنة اصابت صدره ، فسقط ارضا ، وكان ان اقبل اثنان من الحطابين في هذه اللحظة على صوت صليل السيوف ، فاشار فرانسوا الى شقيقه المسجى ارضا ليحملاه ، ثم مضى نحو الحصن وهو يقول لنفسه:
ـ اذا مات فقد نال جزاءه ، وان شفي من جراحه ، فسيقتله الخجل والتقريع مدى حياته .
ولما وصل فرانسوا الى الحصن ، طلب ان يعدوا له جواده فلما فعلوا ركبه معلنا للضابط الذي اسرع لتحيته انه لن يعود ابدا .
وفي هذه اللحظة ترددت في الغابة صيحة امرأة تقول :
ـ فرانسوا .. فرانسوا ..
ولكن فرانسوا لم يسمع هذا النداء ومضى في سبيله ، وبعد قليل وصلت امرأة الى باب الحصن ، وقالت تسأل احد الجنود :
ـ الى اين ذهب فرانسوا ؟
ـ من يعلم يا سيدتي .
ـ ومتى سيعود ؟
ـ لقد اخبرنا انه لن يعود ابدا ؟

ـ والى اين تؤدي الطريق التي سلكها ؟

ـ الى باريس •

فشكرت جان الجندي ، وسارت تحمل ابنتها بين يديها في طريق باريس خلف زوجها •

وكانت جان بعد ان عادت اليها ابنتها قد قررت الذهاب الى الحصن لتقص على زوجها جلية الخبر ، وتخبره بكذب هنري وسفالته ، بعد ان اطمأنت الى سلامة فتاتها ، ولكنها وصلت متأخرة كما قدمنا ، فقررت ان تتبع زوجها ولم تكن تعرف باريس ، ولا تملك مالا ، ولا تحمل من الملابس الا ما كانت تلبسه ، ومع هذا فانها لم تلق بالا لهذا كله ، وقررت المضي في سبيلها والبحث عن زوجها •

وكان ان وصل الحطابان الى الحصن ، بعد ساعة من الزمن يحملان هنري ، فاضطرب الضباط والجنود منه ، واستدعوا الطبيب ففحصه وقرر انه سوف يعيش ولكنه لن يبرح فراشه قبل ستة اشهر •

ولم يدر في خلد احد من سكان الحصن ، ان فرانسوا هو الذي بارز شقيقه وجرحه ، فقد خيّل لهم ان بعض اللصوص قد هاجموه وجرحوه •

وازم الحطابان الصمت ، فقد عرفا فرنسوا ، ولكنهما خشيا ان يذكرا اسمه فينتقم منهما في المستقبل •

وكان بادراليان في الوقت نفسه قد غادر الحصن مع ابنه ، في طريق باريس ايضا ، لانه خشي انتقام هنري منه ، فيما اذا عرف برد الطفلة الى امها •

فلما كان في الطريق التقى جان وابنتها ، فخفق قلبه وسألها عن شأنها فاخبرته انها في طريقها الى باريس •

سألها فيما اذا كانت تعرف احدا فيها •

فاجابت بالنفي •

طلب منها ان يحملها على جواده فرفضت طلبه وشكرته .
سألها فيما اذا كانت تملك مالا فقالت :
ــ كــلا ..
فما كان منه الا ان اقترب منها ، ووضع في يدها خاتما من الماس وهو يقول :
ــ سيدتي ارجوك ان لا تلعني الشفاليه بارداليان فانه من اصدقائي .
ثم لكز جواده مسرعا حتى توارى عن الانظار .
وعرفت جان الرجل حالا ، فهو الذي رد اليها ابنتها .
ثم نظرت الى الخاتم الذي كان يلمع في يدها فاذا به قطعة ثمينة مــن افخر انواع الماس ، وقد كان هنري قد اهداه لبارداليان لما كلفــه بخطف الطفلــة .

★ ★ ★

وصلت جان الى باريس بعد صعوبات هائلــة .. وذهبت الى قصر امير الجيوش تسأل عن فرانسوا ، فلما لم تجده ، طلبت مقابلــة الاب ، فرضي باستقبالها .

وكان قد عرف بزواج ابنه منهــا ، فقصت عليه قصتها ، وما فعلــه هنري معها ، وكيف اتهمها بالخيانة بعد ان رفضت حبه ، فاختطف ابنتها وهددها بقتلها ان لم تعترف بخيانتها امام زوجها .

ولم يكن امير الجيوش يعرف بالخلاف الذي نشب بين ولديــه لحب كل واحد منهما لجان ، ولكنه كان قد عزم على ابطال هذا الزواج وتزويج ابنه الاكبر وخليفته من امرأة نبيلة اخرى ، فما زال بجان يهددها بسجن زوجها ، او بقبولها الطلاق منه ، حتى اضطرت مرغمة الى القبول .. رحمة بزوجها ، واشفاقا عليه .

وتمت المصادقة على الطلاق من البابا والملك ، وفي سنة ١٥٥٧ مـات امير الجيوش ، وعين الملك فرانسوا مكانه ، وعقد زواجـه على ديانا دي فرانس ابنة الملك هنري الثاني .

وقد ذهب فرانسوا للاجتماع الى زوجته المقبلة قبل اسبوعين من عقد الزواج الرسمي ، فحدثها بغرامه السابق ، وزواجه ، وما تم من الطـلاق بعد ذلك ، وان الحب على الاثر قد مات في قلبه ، وانه سعى للموت غـير مرة ، ولكن الموت كان يهرب منه ، وانه والحالة هذه لا يستطيع ان يقدم لزوجته الجديدة غير الحب الاخوي والاخلاص الطاهر .

وتقلبت (ديانا) عرضه هذا بهدوء ، وقالت له :

ــ اني سأحترم حداد قلبك ..

ومنّت نفسها بالتحايل على قلبه في المستقبل .

وكذلك لم يكن فرانسوا يجتمع الى اخيه او يراه لان كلا منهما كان يبتعد عن الآخر ، ولكن الاخوين كانا لا يزالان يحبان (جان) ويبحثان عنها فلا يوفقا .

واما (جان) فانها بعد ان وقعت على صك طلاقهـا ، سقطت مغمى عليها ، فلم تعرف كيف غادرت القصر ، وكيف نقلت منه .. ولا كيـف صرفت حياتها التي تتابعت بائسة فقيرة ، تبكي حبها ، وتحنو على ابنتها .

وكانت في هذه الاثناء ، تعيش في منزل حقير يقع في شارع سانـت دنيس مؤلف من ثلاثة غرف ومفروش بابسط الاثاث ، ولكن النظافة كانت بادية في كل غرفة من غرفه .

وكانت الى هذا لا تزال محتفظة بجمالها ، وانوثتها ، كما ان فتاتهـا كانت قد بلغت السادسة عشرة من العمر ، لها شعر اسود جميل ، وقامـة هيفاء ، ووجه كالقمر ، وان كانت ابدا بادية التفكير .. ظاهرة القلق .. كأنما كتب عليها القدر ان تكون كامها شقاء وبؤسا .

وكانت (لويزا) تطرز وشاحا لما دخلت عليها امها ، فرغبت الام في مساعدة ابنتها ، فرفضت لويزا ، فقالت الام :

ــ العلك نسيت ان علينا ان نسلم الوشاح هذا اليوم لصاحبته (ماري توشيت) .

ــ لماذا لم تخلق اغنياء كهذه السيدة ، ولماذا كتب الله علينا ان نعمل للآخرين لنعيش ؟

وفكرت (جان) فيما يكون عليه حال ابنتها لو اخبرتها انها ابنة امير الجيوش مونتمورانسي .

ولكنها تمالكت نفسها وقالت :

ــ انت اميرة يا ابنتي بل انت افضل بكثير من الاميرات .. ولولا الشقيان اللذين نغصا حياتي ، لكنت في احسن حال .

فقالت لويزا :

ــ لماذا لا تذكرين لي اسم هذين الشقيين ؟

ــ ان احدهما يدعى الشيفاليه بارداليان .

ــ سوف اذكر هذا الاسم ، وسأكرهه طوال حياتي .. فما هو اسم الرجل الآخر ؟

فلاذت الام بالصمت ، واحترمت البنت سكوتها .

ولما انتهى العمل من الوشاح ، حملته (جان) وذهبت به الى صاحبته، واما (لويزا) فقد وقفت تنظر الى احدى غرف الفندق المقابل للمنزل ، وكان هناك فتى يقف امامها ، فلما شاهدها رفع يديه مسلما .. فاحمر وجه (لويزا) ولبثت دقائق تحدق في وجه هذا الشاب .. الذي احبته عند رؤيته ولو انها عرفت اسمه ، لذعرت واجفلت ، ذلك ان هذا الفتى الشاب لم يكن غير الشفاليه بارداليان ابن الشفاليه بارداليان الكبير .

★ ★ ★

كان بارداليان الصغير يقيم في غرفة فاخرة من غرف هذا الفندق الذي كان يواجه منزل جان وفتاتها ، والذي كان يعتبر من احسن فنادق في باريس .. منذ ثلاثة اعوام .

وقد يسأل القارىء كيف استطاع هذا الشاب الاقامة في هذا الفندق، وهو لا يملك من المال شيئا ؟

والجواب على ذلك ان بارداليان الصغير كان ينعم بكثير من الصفات التي عوضت عليه فقره وبؤسه .. كان فارسا وجريئا مقداما ، ريان الشباب صلب الاعصاب ، ممتلىء الجسم ، طويل القامة ، حاد النظرات ، اذا ابتسم استهوت ابتسامته الناس ، وان غضب ارهب الجميع .

كان جميع من في الشارع يهابونه ويخافونه ، يحارب بسيفه كأحسن ما يفعل المحاربون ، ويهاجم الجحفل غير هياب ولا وجل ، فيشق طريقه فيه ، بسيفه الطويل ، وبراعته الخارقة في استعماله ، حتى لم يكن في باريس من يدانيه في اعمال البطولة ، والتجديد في المعارك والملاحم .

وكان قبل ان يرسل الى (لويزا) تلك القبلة ، التي هزتها وهزته ، قد دعاه والده بارداليان الكبير اليه ، واعلن له انه مغادر باريس وقد لا يعود اليها ، وانه اذا لم يورثه مالا فقد اورثه ما هو خير من المال والعقار .. وانه يعتقد انه خير من يحمل السيف في فرنسا ، وليس فيها الآن من يضاهيه او يشبهه .. كما انك عركت الحياة وعركتك ، وعرفت البؤس والرخاء ، وقد كان من الممكن ان تكون الآن في حالة خير من حالتك لولا جريمة ارتكبتها فحالت بيني وبين الخير والرخاء .

ودهش الشاب لما سمعه ، وسأل والده عن هذه الجريمة ، فقص عليه ابوه كيف كلفه رئيسه بخطف طفلة ففعل ، واعطاه خاتما من الماس جزاء ذلك ، ووعده بالمزيد بعد الخطف ، وكيف خطب الفتاة ، ثم اعادها الى امها ، بعد ان وبخه ضميره ، وكيف ترك بعد ذلك خدمة سيده ، وقضى

خمسة عشر سنة شريدا معدما •

ثم مضى الاب يوصي ولده ، ان لا يثق بالناس ، فليس بينهم من يساوي قيمة الحبل للذي يشنق به ، وان لا يحاول مساعدة انسان، تاركا الناس وشأنهم ، وان لا يعترض لصوصا يحاولون سرقة مكان ، ولا يسرع لنجدة اي كان •• فذلك خير وابقى •

بكى بارداليان لفراق والده ، ثم عاد الى نفسه ، وقد ادرك ان عليه ان يحيا في الدنيا وحده ، وان يواجه الناس بمفرده •

وكان بارداليان يقيم في هذا الفندق مع ابيه في غرفة مظلمة ، تشرف على فناء الفندق ، فلم يفكر في عيوبها عهد والده ، فلما اصبح وحده بدت له مساؤها ، فأخذ يفكر في البحث عن غرفة اخرى •

وفيما هو في شأنه ، شاهد باب غرفة تواجه غرفته ، وكان الباب مفتوحا ، فذهب الى هذه الغرفة ، فوجدها خالية ، حسنة الرياش ، تطل نافذتها على الطريق العام ، فأعجبته ، وزاد في عجبه حين شاهد فتاة تقف امام نافذة المنزل المقابل ، وهي كالقمر جمالا وروعة ، فصاح صيحة دهش ، فسمعت الفتاة صيحته واقفلت النافذة ، وسمّر الشاب على الاثر في مكانه ، مسحورا مأخوذا •

واخيرا أفاق على صوت صاحب الفندق لاندري غريغوار •• وكان ضخم الجثة ، مكتنز اللحم والشحم يشبه البرميل الكبير •

فلما شاهد بارداليان في الغرفة عض على شفتيه ، وقال للشاب :

لقد كنت ابحث عنك •• وذهبت الى غرفتك فلم اجدك فيها •

فأجابه الشاب :

ـ اني بالعكس في غرفتي فقل ما تشاء •

فاصفر وجه صاحب الفندق وقال :

ـ كيف انت في غرفتك ؟

قـال :

ـ لقد راقت لي هذه الغرفة فاستبدلتها بالقديمة •

ـ ولكني اتيت لاخبرك انك لا تستطيع البقاء عندي في فندقـي •• حتى ولا في غرفتك القديمة ، ولتعلم ان والدك لم يدفع لي اجرا عن نزوله في فندقي حتى الآن ، وهو ما لا يمكن ان يقبل به احد على الاطلاق •• وحين طلبت من والدك ان يدفع لي اجار الغرفة ، اجابني بالصفع والضرب •• وقد سكت على ضربه لانه كان يحمي فندقي ، فاذا حـاول شخص الاعتداء عليّ ، او العربدة ، حمله والقاه في الشارع •

فقال بارداليان :

ـ اذاً فانت مديون له حتى الآن •

ـ كفى مزاحا ايها الشفاليه ، وغادر الغرفة حالا ، او ادفع اجار الغرفة عن السنتين السابقتين •• ولتعلم ان هذه آخر ليلة تقضيها عندي •

وابتسم بارداليان ، وذهب الى غرفته القديمة فأتى بعصا كانت فيهـا وانهال على صاحب الفندق بالضرب والصفع ، وهو يقول :

على الابن المهذب ان يقتدي بابيه •

وأخذ صاحب الفندق يصيح ويتوجع ، وأقبل خدم الفندق وزوجه لا تدري على صوت صياحه ، فلما شاهدوا هذا المشهد جمدوا في مكانهم، وعندئذ حمل بارداليان صاحب الفندق واراد القائـه الى الشارع مـن النافذة ، وهدده بالموت ان لم يأمر خدمه بمغادرة الغرفة ، ففعل ، وراح على الاثر صاحب الفندق يستعطفه ، ويطلب منه ان يعفو عن حياته ، فقال بارداليـان :

ـ سأفعل شرط ان لا تعود الى هذه المطالب بعد الآن •• وان تتركني أقيم في هذه الغرفة •

واوفق صاحب الفندق •

واعاد بارداليان صاحب الفندق الى الغرفة ، وبعد ان عاد المسكين الى رشده ، وتمالك اعصابه ، اتفق مع بارداليان على ان لا يتعرض له بشيء بعد اليوم ، وان يتركه يقيم في الفندق ما شاء ، وان يتناول طعامه مجانا ، شرط ان يحميه كما كان يفعل والده •

★ ★ ★

— ٤ —

انقاذ ملكة

وفي ذات ليلة .. غادر بارداليان بعد هذه الحادثة باسابيع عديدة ، احدى الحانات بعد ان شرب قدرا رحبا من النبيذ ، فلما احتواه الشارع مضى يتهادى فيه ويغني ، فسمع صوتا يقول :

— الينا يا اهل النجدة .. فحاول العمل بوصية والده ، من البعد عن المشاكل ، والهرب من المتاعب .

ولكن شيئا في قرارة نفسه دفعه الى الاسراع نحو الشارع القريب ، الذي قدّر ان الصوت لا بد ان يكون قد صدر منه .

فلما وصل الى الشارع المذكور شاهد رجلين يحيط بهما اثنا عشر رجلا من قطاع الطرق ، وكان الرجلان فوق جواديهما ، وفي يد احدهما جواد ثالث لا راكب عليه ، وهو الذي كان يصرخ ويستغيث .. ولا بد انه كان خادم احد البيوتات النبيلة .

واما الفارس الآخر فكان يدافع عن نفسه دون ان يقول كلمة او يطلب نجدة .

وقد اصاب اثنين من المهاجمين فالقاهما مطروحين ارضا .

ولكن خصومه كانوا اكثر عددا ، وكان لا بد ان يتغلبوا عليه آخر الامر ، وادرك بارداليان حرج موقفه ، فصاح به ليتشجع .

ثم سقط على قطاع الطرق كما يسقط السيل الجارف ، واخذ يكيل لهم ضرباته دون ان يسحب سيفه من قرابه .

ولما تمكن من امساك اثنين منهم قبض على عنق كل منهما ، واخذ يضرب رأسيهما الواحد بالآخر ، حتى سال دمهما .

واخيرا دفع الرجلين فالقاهما فوق الاخرين ، فسقط الجميع ارضا .

وابتسم بارداليان لما آلت اليه حالته ، وسحب سيفه في هذه اللحظة .

ووقف امام الفارس ينتظر ما يكون من الخصوم ، ولكن هؤلاء كما يبدو تبينوا اخيرا وجهه او عرفوه من ضرباتهم ففروا هاربين من امامه .

عندئذ التفت بارداليان الى الفارس وقال له :

ــ اتعلم ما فعلت يا سيدي .. لقد خالفت وصية ابي ، الذي اوصاني بترك الناس وشأنهم وعدم التعرض لمشاكلهم .

فقال الفارس :

ــ ولكنك انقذت حياتي .. فما الذي تريده ؟

ــ لا اريد شيئا .

ــ اذن تفضل بقبول هذا الجواد ، فهو خير جيادي .

وتقبل بارداليان الجواد ، وكان بالتأكيد من خير الجياد ، ويدعى (كالور) .. وذهب به الفندق حيث وضعه في الاسطبل ، وقدم له حفنة من الشعير .

وكان ان اقبل صاحب الفندق (لا ندري) في هذه اللحظة ، فلما شاهد الجواد سأل الشاب :

ـ اهوالك يا سيدي ؟
ـ نعم لقد حصلت عليه الليلة ..
فقال صاحب الفندق :
ـ ايجب عليّ اطعامه ايضا ؟
ـ طبعا ، اتريد ان يموت جوعا مثل هذا الجواد الاصيل ؟
ومضى بارداليان الى غرفته ، تاركا صاحب الفندق ينتف شعر رأسه .
ولما كان اضلع الرأس ، فانه لم يفز بشعرة واحدة .
وكان بارداليان بعد ان تقبل الجواد ، ومضى الفارس في سبيله ، قد التفت الى الخادم الذي كان يسير خلفه ، وسأله :
ـ من يكون هذا الفارس الذي عصيت والدي بسببه .
فقال الخادم مذهولا :
ـ انه هنري دي مونتمورانسي مارشال دامفيل .

★ ★ ★

وكان بارداليان بعد ان ارسل للويزا تحيته ، قد فرح فرحا عظيما حين ادرك انها لم تغضب منه ، ولا اقفلت النافذة في وجهه .

وقدر انها لا بد تحبه رغما عن حقارة ملابسه ، ولهذا فكر في التحدث الى امها بحبه ، لعلها توافق وترضى .

ولما شاهد (جان) تغادر المنزل ، اسرع يغادر الفندق بدوره لعله يلحق بها ، ويشكو اليها حبه ، ويطلب موافقتها على زواجه بفتاتها .

فلما وصل اليها توقف وتردد ، حتى شاهدها تدخل منزلا متواضعا صغيرا في شارع باريس ، فوقف ينتظر خروجها .

وطرقت (جان) الباب ففتحت لها الخادمة ، وصعدت بها الى الدور

الثاني ، حيث احتوتها غرفة مفروشة باحسن الرياش ، كان فيها شاب وفتاة حسناء ، فسألها الشاب :

ـ هل رسمت ما اوصتك به ؟

فاجابت بالايجاب ، واخذ الشاب ينظر الى الرسم فارضاه ، وعرضه على الفتاة يسألها رأيها فصاحت تقول :

ـ وكيف لا يعجبني يا شارل وانت الذي رسمته •

ولم يكن هذا الشاب غير شارل التاسع ملك فرنسا ، وكانت الفتاة (ماري توشيت) حبيبته •

وقد لحظت (جان) انهما يحبان بعضهما حبا عظيما ، ثم سمعت الملك يقول لحبيبته :

ـ اني لا افكر الا بك حتى في قلب اللوفر ، بينما (امي) تظن اني منهمك مثلها في محاربة اعداء الدين من الهيكونوت ، واخي الدوق دي انجو يعتقد اني مشغول بالعمل لقتله ، فيما الدوق دي كيز يراقبني ويحدق في وجهي ليعرف ما كتب له لوح القدر فيه •

« واما انا في الواقع فلا افكر في شيء مما يظنون •• بل لا افكر الا بك » •

وصاحت ماري تقول :

ـ اشكرك يا صاحب الجلالة ، فقد جعلتني اسعد الناس •

وارتعشت (جان) حين ادركت ان الشاب الذي امامها ليس الا ملك فرنسا •

وخطر لها ان تحدثه بامر ابنتها وكيف انها ابنة فرانسوا دي مونتمورانسي •

ولكن الملك ما لبث ان راح يقول لحبيبته :

ـ لا تذكريني بلقبي •• فانا في الواقع لا اجد الراحة الا عندك ، ولا آكل بشهية الا على مائدتك •

واصابت الملك النوبة في هذه اللحظة •• فاتقدت عيناه ، واصفر وجهه ، واهتز جسمه ، وصاح يطلب من حبيبته حمايته من الذين يحاولون قتله •

ثم اشتدت عليه النوبة فلم يعد يعي على شيء ، واسرعت جان لمساعدة ماري ، فسألتها هذه ان لا تذكر شيئا عما رأته ، فوعدتها ان تفعل •

وكان الملك الشاب الذي لم يتجاوز العشرين من عمره مصابا بمرض عصبي عضال •

واما الفتاة التي كان يحبها ، وهي ماري توشيت ، فقد كانت تكبره باربعة اعوام ، شقراء الشعر زرقاء العينين رائعة الجمال ، تفيض حبا واخلاصا ، وهذا الذي حمل الملك على التفاني بغرامها ، والاطمئنان اليها، والتحدث اليها باسراره ، وتناول الطعام عندها ، لانه كان يخشى ان يدسوا السم له في الطعام في قصر اللوفر ، فلا يطمئن الى الاكل فيه •

★ ★ ★

سار باردليان في أثر الام بعد انغادرت المنزل، وهو لا يدري ما يقول لها ، ولا كيف يبدأ حديثه معها ، فقد كان لا يزال ساذجا في مثل هذه الامور ، فلما وصل الى شارع سانت انطوان ، احس ان في الجو شيئا ، فقد شاهد الناس يسيرون افواجا في طريقهم الى اللوفر •

وكان ان اضاع جان ولم يعد يراها لكثرة الزحام ، فمضى مع الناس، وقد استبد به الفضول ليرى ما يكون •

ولحظ ثلاثة رجال ضخام الاجسام يتقدمون الناس ، والناس يصيحون خلفهم ، يحيا بيزو ، ويحيا كيرسي •

سأل بارداليان رجلا قريبا :

ــ من يكون هؤلاء الافيال ؟

فلحظه الرجل شذرا ، فلما شاهد سيفه الطويل اجابه :

ــ الا تعرف كيرسي الجوهري ، وبيزو الجزار ، وكرفيه الكتبي •

فقال بارداليان :

ــ اني قادم من الريف ولم اسمع بهذه الاسماء قبل اليوم •

فاخبره الرجل بانهم من اصدقاء الدوق دي كيز وانهم من المدافعين عن الديانة ضد الهيكونوت ، وان الدوق الذي وصل الى باريس منذ قليل سيمر بهذا الشارع في طريقه الى اللوفر •• وختم الرجل حديثه قائلا :

ــ يحيا الدوق دي كيز ولتمت ملكة نافار •

وكانت ملكة نافار من الهيكونوت ، وهم طائفة من من البروتستانت •• كان دي كيز وانصاره يكرهونهم ويريدون ابادتهم لاغراض سياسية لا علاقة لها بالدين في حال من الاحوال •

وهز بارداليان رأسه ، وراح يراقب الرجال الثلاثة الذين تأكد له انهم يتزعمون هذه الثورة ، فشاهد احدهم ينظر الى نافذة تطل على الشارع ، وشاهد امرأة ورجلا خلف النافذة ، ورأى الرجل الواقف خلف النافذة يشير اشارة سرية الى احد الثلاثة •

وكانت المرأة الجالسة على كرسي خلف النافذة كاترين دي مديسيس زوجة هنري الثاني ملك فرنسا السابق ، ووالدة شارل التاسع •

وكانت هزيلة الجسم ، تلبس السواد ، ولها انف كانف العقاب ، ونظرات نافذة قوية •

واما الرجل الذي كان خلفها فكان ريجياري الفلكي الذي كان شابا جميل الصورة ، قد ارتفعت الكلفة بينه وبين الملكة الام ، فلم يكن يبادلها الاحترام المفروض من الرعية نحو الملوك والملكات •

وكانت الملكة في هذه اللحظة تسأل رفيقها فيما اذا كان واثقا من ان ملكة نافار وصلت الى باريس سرا كما بلغها ، فاكد لها الخبر ، وان الجاسوسة اليس دي ليكس مرافقتها قد نقلت اليه هذا الخبر •

وان الملكة ستمر بهذا الممر ، ولهذا استنجد بالرجال الثلاثة ليثيروا الشعب ، ويهاجموا العربة التي تمر بها ملكة نافار فيقضون عليها •

وعضت كاترين على شفتيها وقالت :

ــ اني لا ابالي بالدوق دي كيز فهو في قبضة يدي افعل به ما اشاء ساعة اريد •• واما ملكة نافار فهي العدو اللدود ، واذا ظفرت بها خنقتها •

فقال لها ريجياري :

ــ لا عليك من هذا فسيتولى الشعب هذه المهمة بعد قليل •

وعلا صياح الشعب في هذه اللحظة •• ودنت كاترين من النافذة فشاهدت هنري دي كيز مقبلا ، فقالت لريجياري :

ــ اني لا ارى غير دي كيز •

فقال :

ــ الا تشاهدين المركبة في آخر الجسر ، يخفرها بعض الحراس ، ان ملكة نافار فيها ، ولن تستطيع العودة الآن بعد ان طوّقها الشعب،ولسوف يعرفها كيرسي حالا من النظرة الاولى •

وكان هنري دي كيز في هذه الاثناء يسير فوق الجسر ، وحوله ثلاثين فارسا ، والناس يحيونه ويهتفون له ، وينادون بسقوط الهيكونوت •

وكان دي كيز شابا في العشرين من عمره ، قوي الجسم ، شديد الانفة والكبرياء ، فوقفت كاترين تراقبه ، وقد ازداد حقدها عليه لهتاف الشعب له •

كل هذا كان يجري وملك فرنسا عند ماري توشيت نائما لا يعلم شيئا عن المؤامرة التي تدبرها امه •

واخيرا وصلت المركبة المتواضعة الى المنزل القـديم الذي كان يقف بقربه الزعماء الثلاثة وباردليان .

ولما وصلت المركبة الى امام المنزل فتحت نافذة منها لحظة ، كـانت كافية ليصيح جماعة من الشعب الثائر .

ــ هذه حنة ملكة النافار ، ليمت الهيكونوت ، ولتمت ملكة نافار .

وهجم الشعب على المركبة وهم يصيحون :

ــ اطرحوا عدوة الدين في النهر .

وقبل ان يتمكن الشعب من المركبة ، خرجت منها امرأتان .

قالت احداهما وهي الاصغر سنا :

ــ اشفقوا على جلالتها .

واشار الزعماء الثلاثة الى المرأة الاكبر سنا ، وقالوا :

ــ هذه هي .

ولكن الملكة لم تأبه لهذا التهديد والوعيد ، وتقدمت نحو البيـت القديم ، كأنما تريد الالتجاء اليه ، وامتدت الايدي نحوها .

وهجم الفا رجل على امرأة واحدة .. هجوم الوحوش .

ولكن يدا لم تصل اليها ، لان باردليان تحرك من مكانه فـي هـذه اللحظة ، واسرع يدفع الناس عن الملكة بيديه ورجليه ، حتى تمكن مـن اجبار الناس على الارتداد من امامه ، فجرد عندئذ حسامه ، وانهال بـه على الناس ضربا وجرحا ، حتى دهشت كاترين من جرأته وبسالته ، وقالت لصاحبها :

ــ اما ان يكون هذا الرجل معنا او يموت .

وقال الدوق دي كيز ، الذي كان يراقب هذا المشهد :

ــ يجب ان اعرف من يكون هذا الرجل .

وبعد دقائق تمكن باردليان بحسامه من طرد الناس من امام بـاب

البيت القديم ، فصاح بالمرأتين ليستعدا ، ثم ضرب الباب بقدمه فلم ينفتح امامه لاول وهلة ، وادرك المهاجمون غرضه فهجم خمسة عليه ، فـدفعهم بحسامه فسقط اثنان ، ثم ضرب الباب ضربة ثانية ، فانفتح ، فدفع الملكـة ورفيقتها اليه ، ثم عمد الى اقفاله خلفه من جديد ، وكان المنزل لنجـار ، وفيه من الواح الخشب العدد الكثير ، فدعم الباب بخمسة منها ، بحيث اطمأن الى انهم لن يتمكنوا من خلعه الا بعد دقائق •

قالت له ملكة النافار عندئذ ، لما شاهدته ممزق الملابس دامي اليدين والوجه ، لا تفارق الابتسامة وجهه الجميل :

ـ اذا كان لا بد من الموت ، فاني اريد قبل موتي ان اشكرك لانـي لقيت ساعة موتي اعظم بطل في حياتي •

فقال بارداليان ضاحكا :

ـ اننا لم نمت حتى الآن ، وسابحث علنا نجد طريقا ننجو منه •

ومضى يفحص المكان ، فعثر في القاعة على مدخل قبو ، فأدخل المرأتين فيه ، فصاحت الملكة تسأله :

ـ وانـت ؟

ـ اني سأتبعك بعد قليل •

مضت الملكة تفحص القبو ، فعثرت على حلقة من الحديد في الارض فانتزعتها ، فشاهدت سلما خشبيا ينتهي الى نهر (السين) وقاربا عنـد اسفل السلم •

اسرعت الى بارداليان تعلمه بما اكتشفته ، فدعاها للصبر لحظات •

وكان بارداليان قد عثر على حبل غليظ ، ربطه بأخشاب السطح واخذ يجره ، ويسنده ، فيما كان الثائرون يهاجمون الباب ، وقد تمكنوا منـه اخيرا واخذوا يصيحون : الى الموت •

وفي هذه اللحظة نفسها تمكن بارداليان من انتزاع دعائـم السقف

بواسطة حبله ، فسقط المنزل على المهاجمين ، وطمرهم تحت الاتربة والحجارة ، في اللحظة التي قفز فيها بارداليان الى داخل القبو حيث اسرع الثلاثة الى ركوب الزورق ، فيما كان الناس يعتقدون انهم هلكوا تحت انقاض المنزل .. مع سواهم من الذين اقتحموه من الثائرين .

ولما وصل الثلاثة الى الضفة الثانية للنهر ، وقف بارداليان يودع الملكة .

فقالت له :

ـ اني ملكة نافار وقد اسديت الى اسرة (بوربون) خدمة عظيمة لن ننساها .. فمن تكون انت ؟

قال :

ـ اني الشفاليه دي بارداليان ، ولما اقدمت على انقاذك لم اكن اعلم انك من اصحاب التيجان .

فقالت وقد اعجبها جوابه :

ـ اذا اردت ان تتبعني الى معسكر ولدي ضمنت لك المجد والثروة .

وفكر بارداليان كيف يبرح باريس ، ويترك محبوبته الحسناء فيها .

واجابها بعد تردد :

ـ شكرا جزيلا ، يا صاحبة الجلالة ، ولكني عزمت على ان ابحث عن الثروة والمجد في باريس ، لا في خارجها .

فقالت :

ـ انت وما تشاء .. اذا اراد احد رجالي ان يراك فاين يجدك ؟

قال :

ـ في فندق دفينير ، في شارع سانت دنيس .

والتفتت الملكة عندئذ الى وصيفتها وعاتبتها على فتح النافذة ، وذكر

اسمها امام الجمهور الثائر ، فطاش رأس الفتاة وراحت تعتذر ، فنظرت اليها الملكة نظرة منكرة وقالت :

ـ لو اراد احد اعدائي تسليمي الى اعدائي يا اليس لما فعل اكثر مما فعلت •• فلا تعودي الى مثل ذلك •

والتفتت الملكة الى بارداليان تطلب منه ان يرافقها في زيارة قصيرة ، فوافق ، ومضت الملكة تسير من شارع الى آخر حتى وصلت الى امام باب في شارع تامبل ! فأمرت اليس بطرق الباب ففعلت ، ففتح لهم الباب عجوز بيضت شعره السنون ، فلما شاهد الملكة عرفها ، وسألها عما تريده •

وضعت كيسا من الجواهر على المائدة ، ففحصها اليهودي ثم قال :
ـ ان هذه الجواهر تساوي ثلاثمائة الف فرنك •
ـ لقد اصبت في تقديرك •

ـ وانا مستعد لدفع مائتين وخمسين الف فرنك بها •• لان النقد قليل في هذه الايام •

ورضيت الملكة بالمبلغ ، واخذت حوالة به على وكيل اليهودي في مدينة نانت ، وكانت هذه الجواهر آخر ما بقي لها من مجوهراتها ، التي صرفتها في المجهود البحري والحركات السياسية •

وكانت ملكة النافار في عهد روايتنا هذه في الثانية والاربعين من عمرها ، تلبس السواد حدادا على زوجها انطوان دي بوربون ملك النافار ، المتوفي في سنة ١٥٦١ •

ولكنها لم تأسف على موته لانه كان ضعيفا مترددا ، تاركا بلاده ومشاكلها الى امرأته التي كانت من اشد النساء جرأة ، واشدهن ذكاء ، وابرعهن سياسة وتدبيرا •

وبعد ان تمت الصفقة ، غادرت الملكة باريس من باب سانت مارتين المجاور لشارع التامبل حيث كانت مركبة تنتظرها تجرها اربعة جياد يقودها سائقان •

وبعد ان ودعت الملكة بارداليان وشكرته على تضحيته في سبيلها ، مدت له يدها فقبلها ، ووقف ينظر الى المركبة تغيب عن نظره برهة من الوقت ثم عاد ادراجه ممزق الملابس كثير الجراح •

— ٥ —

المؤامرة

عـاد بارداليان الى الفندق ، يلتهم ما اعدته لـه زوجة (لا ندري) صاحبه ، من الطيور المقلية ، والخمرة الشهية ، ثم ذهب الى غرفته فنـام طويـلا •

فلما افاق في اليوم التالي كان همه اصلاح ما تمزق من ثيابـه فجلس امام النافذة وتناول ابرة ، ومضى يعمل •

وبعد قليل سمع نقرا على الباب ، فرفع صوته يأذن للطارق بالدخول•

فلما فتح باب الغرفة سمع صوت صاحب الفندق يقول :

نعم انه هنا فتفضل بالدخول يا سيدي البرنس •

والتفت بارداليان ليشاهد هذا الزائر النبيل ، فاذا به امام رجل على احسن ما يكون من مظاهر السيادة والجاه •

وقد زين ريشة قبعته بزمردة لم ير مثلها الا بين جواهر ملكة نافار •

عجب الزائر لرؤيته يخيط ثيابه ، وظنه احد الخدم في اول الامر •

فلما عرف انه بارداليان نفسه ، رفع قبعته وحياه باحترام ، واخبره انه رسول الدوق دي كيز اليه ، يحمل اليه احترامه واجلاله •

فأجابه بارداليان بمثل ذلك •

فقال الرسول :

ان معركة البارحة يا سيدي قد رفعتك الى المقام الاعلى في نفوس الناس ، فان الناس لم يروا معركة مثلها في حياتهم ، رجل واحد يقف امام المئات ، ثم يهدم المنزل على مطارديه •

« ان هذا لمن المعجزات يا سيــدي •• حتى ان شاعر الملك وصف المعركة للملك عند نهوضه وقال انك تستحق الباستيل لاقدامك على انقاذ امرأتين مجرمتين كانتا تحاولان الهرب » •

سأله بارداليان باسماً :

ــ وماذا الذي قاله الملك ؟

ــ ان الملك لم يقل شيئا كما هي عادته ، ويهمني بهذه المناسبة ان اقدم لك هذا الخاتم هدية من سيدي تقديرا لبطولتك •

وتقبل بارداليان الخاتم ووضعه في اصبعه ، ثم عرض عليه الرسول السبب في زيارته ، وسأله فيما اذا كان مستعدا للعمل في حاشية الدوق دي كيز ، الذي يريد تجديد حاشيته ، بضم الابطال المعروفين اليها •

واعتذر بارداليان بأنه يفضل البقاء حرا ، وانه يشكر الدوق على اهتمامه به وتقديره لعمله ، وسيزوره بنفسه ليشكره على هديته وزيارة رسوله •

وسر الرسول بهذا الجواب ، واعتبره دليلا على ان بارداليان سوف ينضم لحاشية الدوق ان عاجلا او آجلا •

وبعد ان تحدثا قليلا •• استأذنه بالانصراف ، وودعه بارداليان الى الباب ، وبعد ان اقفله خلفه اخذ ينظر الى الخاتم ويقدر ثمنه حتى وصل به الى ثلاثمائة ريال •

وفجأة طرق الباب ثانية ، فاخفى الخاتم في يده ، واقبل الطارق فبدا

له رجلا عاديا يلبس ملابس التجار ، وقد اتشح برداء كبير ، فلما ايقن انه امام بارداليان ، سأله عن اليوم الذي ولد فيه •

فقال له بارداليان :

ــ هذا ما لا اعرفه ، ولكن اعرف اني في العشرين من عمري الآن ، واني ولدت في ايام التين •

فقال الرجل في نفسه :

ــ سأسأل النجوم عن امره •

ثم سأله بصوت عال :

ــ هل انت حر يا سيدي الشيفاليه ؟

فقال بارداليان :

ــ من يستطيع الادعاء انه حر يا سيدي في هذا البلد ، ان الجميع يعتمدون على بعضهم بعضا ، ولا يسيرون الا تحت الحراسة •

« واما انا فاني اعيش على هواي ، واذهب الى المكان الذي اريد، ولا اهاب قطاع الطرق ، ولا افعل الا ما يحلو لي •

« فاذا كانت هذه هي الحرية التي تسأل عنها فأنا حر بالتأكيد » •

اصغى الزائر الى حديثه ثم اخرج كيسا من تحت ردائه فوضعه على المائدة وهو يقول :

ــ ان هذا الكيس يحتوي على مائتي ريال •

فدهش بارداليان وقال :

ــ هذه ثروة عظيمة •

ــ وهذه الثروة لك •

ــ اذا كان الامر كذلك فعليّ ان اضعها في مكان امين قبل كل شيء •

وبعد ان وضع بارداليان المال في حقيبته ، سأل زائره :

ـ لماذا اعطيتني هذا المبلغ من المال ؟

فأجابه الرجل بهدوء :

ـ لاشتري حريتك .

فقال بارداليان بهدوء عجيب :

ـ انك لا تزال مدينـا الي بتسعمائة وتسعة وتسعين الفا وثمانماية ريال .

فارتبك الزائر وقال :

ـ اتقدر ثمن حريتك بمليون ريال ؟

ـ نعم .. ولعام واحد فقط .

وكان الزائر (ريني ريجياري) الفلكي المشهور وصديـق الملكـة كاترين وكاتم سرها ، وشريكها في دسائسها .

ولكنه لم يتمالك نفسه من الاضطراب والذعـر حين سمع جواب بارداليان ، وقال :

ـ يبدو انك ماهر في الكلام مهارتك في الحسام ، فاحتفظ بحريتك يا صديقي .

« ولتعلم ان غرضي من هذه الزيارة هو اكتساب ولائك لغرض نبيل تتولاه اميرة عظيمة .. فهل انت مستعد لخدمة هذا الغرض ؟ »

فسأله بارداليان عن هذه الاميرة ومن تكون ؟

فدعاه الفلكي الى زيارة المنزل القائم الى يمين الجسر الخشبي في الساعة العاشرة مساء ليتم التعارف ، ونصحه ان يقرع الباب ثلاث مرات فيفتح له .

وتذكر بارداليان انه شاهد امرأة ورجلا يقفان خلف نافـذة المنزل ساعة الحادثة ، فعزم على معرفة سر هذه المرأة ، ووافق على الزيارة .

وما كاد الفلكي يغادر الغرفة حتى عمد بارداليان الى عد الريـالات التي حصل عليها .

وفيما هو في شأنه هذا قرع الباب للمرة الثالثة ، ودخل عليه رسول من ملكة نافار يقدم له هدية جديدة باسم الملكة وهي عبارة عن خاتم من الياقوت •

وقد استشعر بارداليان بميل غريب لهذا الزائر الجديد الذي كان في شرخ الشباب ، والذي عرف منه ان يدعى (ديودات) •• وانه في مهمة سرية في باريس وسيبقى اياما •

فدعاه بارداليان الى الاقامة معه في الفندق . فاعتذر وقال :

ــ انه يقيم عند دي تاليني صهر الاميرال كوليني الذي يقيم سرا في باريس الآن في قصر الاميرال نفسه ، وطلب من بارداليان زيارته عندما يشاء في القصر المهجور ، وان عليه ان يقرع الباب ثلاث مرات ليفتح له رتاجه ، فيذكر كلمة السر وهي (جادناك ومونكوتور) فيفتح له عندئذ•

ولقد غادر بارداليان الفندق بعد ان ودع (ديودات) •• لشراء بعض الملابس ، وبيع الخاتم الذي أهداه له الدوق د ي كيز •

واما خاتم الملكة فقد احتفظ به ، وزين به اصبعه كما يفعل النبلاء في هذا العهد •

★ ★ ★

فلما عاد الى الفندق بعد ذلك ابصر ثلاثة رجال يقفون بجانب الفندق، ويتطلعون الى منزل جان وابنتها لويزا ، فضاق صدر (بارداليان) منهم •• خصوصا لما شاهدهم يضحكون ويعبثون •

وكان ان ذهب احد الثلاثة في سبيله فتصدى بارداليان للاثنين الباقيين وسألهما عن سبب تحديقهما في المنزل ، فكان جواب وكلام وتهديد ووعيد •

وانتهي الامر الى المبارزة في الساعة السادسة من صباح غد ، في الغابات القريبة ، وقد قال احدهما لبارداليان وهو يهم بالانصراف :

ـ سوف تجدني في هذا المكان انا ورفيقي ، فاجتهد ان تضحك الليلة كثيرا لانك لن تضحك بعدها ابدا .

وقال بارداليان وهو يبتسم ابتسامة مرعبة :

ـ سوف افعل .

ومضي في سبيله وهو يفكر في شأن هذين الرجلين وزميلهما الآخر ، وما غرضهما من التحديق بمنزل لويزا وامها ، واحمر وجهه ، حيث فكر انهما قد يريدان اختطافها .

ولما اشرف على الفندق شاهد حركة غير عادية فيه ، فسأل احد الخدم فعرف ان هناك حفلة ستقام فيه الليلة يحضرها الشعراء ، فيشربون ويتندرون ويتطارحون الشعر .. وان هذه عادة درجوا عليها في مطلع كل شهر .

ولما حاول بارداليان القاء سؤال آخر عليه ، اقبل الى الفندق فارس يلبس قبعة عليها ريشة حمراء ، فاسرع الخادم لاستقباله .

وعرف فيه (بارداليان) المسيو دي كوسيني رئيس حرس الملك شارل التاسع ، واعظم رجل عسكري في اللوفر فدهش لقدومه ، وسأل نفسه ما شأن هذا الرجل في حفلة يقيمها الشعراء ؟

وقد اعتذر رئيس الخدم للشعراء الذين حضروا بعد ذلك بان عددا من كبار رجال البلاط قرروا حضور حفلتهم متنكرين ، فلم يعترض الشعراء على ذلك ، ومضوا عند اجتماعهم ينتقدون الحكم القائم والظلم والاستبداد وينادون بحق الشعب في الحياة والحرية .

ولما انتهوا من ترديد اشعارهم ، غادروا القاعة الى صالة الطعام .

وكان بارداليان قد وقف خلف الباب متنصتا مستمعا لما يقولون ، فلما خلا الجو للمجتمعين من النبلاء •• ونزع هولاء اقنعتهم ، دهش بارداليان حين عرفهم ، اذ وجد بينهم رئيس اساقفة باريس ، وكوسيني رئيس حرس الملك الخاص ، والدوق دي كيز وقريبه الكردينال لورين ، وغيرهم من كبار الاعيان وانصار دي كيز •

ولما سمع ما اخذ يدور بينهم من الحديث ازداد عجبا ودهشة •

فقد قال الكردينال نسيب دي كيز انه قد اخذ من الاديرة ما يزيد عن حاجتها من المال لتصرف على الثورة المقبلة •

وقال المارشال دي تافان :

ـ ان لديه ستة آلاف فارس يتأهبون للزحف المقبل •

وقال المارشال دي دامفيل :

ـ ان لديه اربعة آلاف فارس •

ولم يكن دي دامفيل هذا غير هنري دي مونتسورانسي صاحب الجناية القذرة التي بسطنا خبرها في اول هذه القصة ، وهو نفسه الذي انقذه بارداليان من قطاع الطرق الذين هاجموه ، فكان ان اهداه جواده جزاء وتقديرا •

ولقد زاد هنري دي مونتسرانسي على ما قاله :

ـ ان لديه شروطا للمشاركة في الثورة •

فقال له الدوق دي كيز :

ـ قد عرفنا شروطك •• فهي سجن اخيك فرانسوا وتعيينك مكانه رئيسا لاسرة مونتمورانسي ، وتقليدك منصب ابيك وهو امارة الجيوش ، أليس كذلك ؟

فحنى هنري رأسه بالموافقة •

ونظر بارداليان الى وجهه دهشا حين سمعه يطلب سجن اخيه ، فرأى امارات الحقد ظاهرة بينة على وجهه .

وعاد الدوق يسأل بقية الحضور فقال المسيو كيتالين :

ــ اما انا فبصفتي مدير سجن الباستيل ، فعليّ ان احتفظ بذلك السجين العظيم .. ولا ادعه يغادر السجن الا الى الجبانة .

وادرك بارداليان والعرق يتصبب من وجهه .. ان هذا السجين العظيم .. لن يكون غير الملك نفسه .

وقال دي كوسيني :

ــ اني اتعهد بان يكون حرس اللوفر اطوع من بناني ، وانه حين يصدر امركم ساقبض على ذلك السجين واحمله في مركبة الى الباستيل .

وسأل الدوق رجلا ضخما يدعى مارسيل عن مهمته فقال :

ــ اني شيخ الحارات جميعا ، وجميع افراد العامة يمتثلون لامري من الباستيل الى اللوفر .

وقال اسقف باريس انه سيصدر امرا الى جميع القسس في الكنائس ليبدأوا حملتهم على الملك شارل بتهمة حماية الكفرة ، وتأييد البدع .

واطرق الدوق دي كيز مفكرا بعد الذي سمعه ، ثم اعلن انتهاء الجلسة .

وطلب من الحضور ان يثقوا به ، واعلن ان الساعة الرهيبة قد دنت ، وان اوامره سوف تصل اليهم في الوقت المعين .

واخذ الحضور يغادرون الغرفة بعد ان ودعوا الدوق دي كيز وداع الملوك .

واسرع بارداليان يختبيء في القبو القريب حتى لا يراه احد ، وهو

يفكر فيما يجب ان يكون موقفه من هذه المؤامرة التي كان كل واحد من افرادها مدينا للملك بمركزه ووجاهته •

ولما لم يستقر على رأي فيما يجب عليه عمله ، غادر مكانه ، واسرع بعدو الى خارج الفندق •

★ ★ ★

سمع هنري دي مونتمورانسي وهو في طريقه الى قصره لغطا قريبا في الشارع امامه ، فاختبأ في عطفة منه ، بعد ان امسك خنجره بيده مخافة ان يكون القادمون من اللصوص •

ولكنهم لما اقتربوا منه وسمع اصواتهم عرف انهم ليسوا كذلك ، بل وعرف ان احدهم لم يكن غير الدوق دي انجو شقيق الملك •

وسمع الدوق يقول جوابا على سؤال احدهم له عن اسم المرأة :

ـ انهم يلقبونها في شارع سانت دنيس بالمرأة السوداء ، ويدعونها السيدة جان •

« ولكن المهم ابنتها لويزا التي هي في غاية الجمال والملاحة » •

واهتز هنري حين سمع هذين الاسمين ، واسرع خلف الدوق ورفاقه، وقد اشتد به وجده القديم وحبه الماضي •

وفكر فيما يكون مصيره لو عرف اخوه بامرها وعرف سره وخياناته ، واخذ العرق يتصبب منه ، وصاح بعد قليل مرعدا مبرقا :

ـ لن انتظر حتى يصل الدوق دي كيز الى عرش فرنسا ، لاغدو رئيسا لاسرة دي مونتمورانسي ، بل لا بد من ان اصل الى ما اريد بسرعة فقد طالت حياة اخي ، ويجب ان يموت •

وكان ان وقف الدوق دي انجو امام منزل جان فسأل الدوق احـد اصدقائـه :

ــ اين المفتاح يا مورفر ؟

ــ انه معي يا مولاي .

ــ اذاً لنتقدم نحو الباب .

وعندئذ برز للجماعة شخص من حيث لا يعلمون ، وقال لهم ببرود :

ــ انكم ستجبرونني يا سادة على مخالفة نصائح والدي فلتسقط تبعة هذا الامر عليكم .

صاح الدوق يقول :

ــ من هذا المجنون ؟

وقال موجيرون احد رفاقه :

ــ انه الرجل الذي اعترضنا منذ وقت قصير ، واتفقنا على مبارزتـه في صباح الغد .

والتفت الى بارداليان قائلا :

ــ اراك اصبحت حارسا على هذا الباب !

فقال بارداليان :

ــ هو ما تقول لادفع السفهاء واللصوص عنه .

وزجره الدوق وامره بمغادرة المكان ، فالتفت بارداليان الى رفاقـه وقال لهم :

ــ امنعوا خادمكم هذا من التحرش بي او اضطر الى تأديبه .

وازداد غضب الجماعة ، وقالوا :

ــ اننا لن نمهلك الى الغد ، وسنقتلك الان .. وهجم مورفر عليه ، فضربه بارداليان بحسامه ضربـة جرحته في رأسه فارتد مذعورا يصيـح

من الألم •

فهجم عليه (موجـيرون) فضربه بارداليان على يـده ضربة اطاحت الحسام من يده ، فهم كاليس بالهجوم عليه ولكن الدوق تدخل وحاول اقناع بارداليان بتركهم وشأنهم ، فرفض وابى ، وانذرهم بمغادرة المكان ، فهدده الدوق بالويل والثبور وقال له :

ـ ان صبر شقيق الملك اقل من صبر الملك •

فامره بارداليان بالذهاب في سبيله ، فاضطر الدوق مرغما الى العودة، هو ورفاقه ، وهو يتهدده ويتوعده •

وقف بارداليان في مكانه حاميا للمنزل حتى ساعة متأخرة من الليل ، فيما ظل هنري في ركن من اركان الشارع لا يفارق مكانه ، حتى بعد ان ذهب بارداليان الى فندقه •

واخيرا اشرق الصباح ، وفتحت نافذة في اعلى المنزل ، واطلت منهـا امرأة ما كاد يراها هنري حتى صاح صيحة دهش ، اذ عرف فيها زوجـة اخيه فرانسوا •• جان دي بيانس •

★ ★ ★

جلست الملكـة كاترين دي دي مدسيس تكتب بعض الرسائـل في الساعة التاسعة مساء ، وريجياري الفلكي يحوم حولها في الغرفة فتسأله بين وقت وآخر عما اذا كان بارداليان سيأتي كما وعد ان يفعل ، فيؤكد لها انه آت لا محالة •• لانه فقير معدم ، ولن يترك فرصة كهذه تفوته •

فقـالت :

ـ اني لم اشاهد مثله بأسا واقداما •

ـ اي مهمة سنكلفه بها ؟

فرفعت رأسها ونظرت اليه ثم قالت :

ـ أني بحاجة الى الرجال الاشداء البواسل .

ـ لدينا (مورفر) .

ـ لقد بات (مورفر) يقلقني .. فهو يعرف الكثير من اسرارنا .

« وقد جرح امس في مبارزة لارتجاف يده ، وانا بحاجة الى شخص لا ترتجف يده ابدا .. لان مستقبل المملكة سيكون متوقفا على سيفه » .

وتذكرت الملكة الآن ايامها الماضيات ، وكيف اوصلها زوجها الملك فرانسوا الاول الى غرفتها ليلة الزفاف ، ثم ذهب ليقضي الليل مع صديقته ديانا دي بواتيه ، وكيف انها لم توفق في زواجها .

تذكرت موت ابنها البكر ، وهو في العشرين من العمر ، بعد ان حكم سنة واحدة ، وكيف يصاب ولدها شارل بنوبات عصبية بين وقت وآخر ، قد لا تطول معها حياته ، وكيف ان ولدها الاصغر ، الدوق دي لنسون لا يبشر وجهه بالخير وحسن المصير .

فلم يبق لها والحالة هذه غير ابنها الدوق دي انجو الذي ترجو ان يصل الى الملك وان يحتفظ به .

واهتزت واضطربت ، حين وصلت في تفكيرها الى هذا الحد .

وقالت بصوت عال :

ـ نعم ، لا بد لي من ادارة المملكة في هذه الفترة من الزمن ، حتى لا يبقى العرش تحت رحمة دي كيز وكوليني وموتتمورانسي .

« لقد وصلت الجرأة يوما بالدوق دي كيز ان اخذ مفاتيح قصر الملك ، فأصبحت اسيرة في البلاط ، وكوليني لا هم له الا نقل العرش الى اسرة بوربون .

وهنـــاك جماعة آخرون غيرهما يريـــدون تمزيق المملكة ، واما انـــا فسأقف في طريقهم واحافظ على حقوق ولدي الدوق دي انجو الـــذي يحبني ويعرفني ويقدرني •

واهتاج الفلكي حين سمع ذلك •

وقـــال :

ــ ولكني سألت النجرم ••

وكان ان رفعت الملكة رأسها اليه ، فقد كانت تؤمن بالنجوم وتخشاها •

ومضى الفلكي يقول :

ــ ولكنك تنسين كما يبدو الولد الآخر ، الذي قررت طرحه ، امـــام باب احد الكنائس ، حتى لا يفطن احد الى علاقاتنا •

ــ لماذا تحاول العودة الى الماضي ، لقد مات هذا الطفل بالتأكيد ، بعد ان سقيته الدواء الذي اتفقنا عليه •

فقال الفلكي :

ــ واذا لم افعل ؟ وكان لا يزال على قيد الحياة •؟

« ولتعلمي اني حين كنت استشير النجوم ، كانت تخبرني بان الغلام لا يزال حيا » •

تصبب العرق من جبين الملكة ، ولكنها تمالكت اعصابها ، وقالت :

ــ هب ان هذا صحيح •• فهو الآن غلام لقيط ، لا يعرف شيئا عن ابويه ، ولا نحن نعرف شيئا عنه وعن مكانه •

فقال الفلكي :

ــ بل هو الآن هنا في باريس وقد شاهدته •

ــ اين ؟• دلني •• تكلم ••

ــ البارحة •• وعليك ان تعرفي اسم المرأة التي التقطته وربته •

ــ من هي ؟

ــ انها جان دي البريت .. ملكة النافار .

وصعقت الملكة لهذا الخبر .

وصاحت تقول :

ــ يا للهول ، أيكون ولدي حي ، وعند اعدائي الذين يستطيعون بواسطته الاساءة الي .

فقال :

ــ انها تجهل انه ولدك .

ــ هذا كلام فارغ .. انها لم تلتقطه وتقوم بتربيته ، الا بعد ان عرفت من يكون .. ولهذا لا بد من موتها واخماد انفاسها .

« ولكن كيف عرفت كل هذه الامور » ؟

ــ عرفتها عند خروجي من غرفة بارداليان .. فما كدت اغادرها حتى شاهدت شابا يدخل اليها .. فوقف شعر رأسي ، لانه كان يشبهني شبها عظيما ، حين كنت في الخامسة والعشرين من عمري .

« فوقفت انصت الى حديثه مع بارداليان ، فاذا به يحدثه ان ملكة نافار قد ربته ، وانه لقيط لا يعرف ابويه ، وقد جاء يحمل له هدية من الملكة لانقاذه لها » .

سألته :

ــ هل كان بارداليان يعرفه قبل اجتماعه به ؟

ــ ابدا .

وقرع الباب في هذه اللحظة .

قالت الملكة :

ـ لقد وجدت عملا لهذا الشاب ، فاذهب وافتح الباب •

ووجف قلب الفلكي وقال :

ـ كاترين رحمة بولدي •

- ٦ -

بارداليان في الباستيل

لما مثل بارداليان امام كاترين •• وحنى رأسه مسلما ، عرّفته الملكة بنفسها ، وشكرته على ما صنعه البارحة من انقاذ ملكة نافار •• وسألتـه فيما اذا كان يعرفها قبلا ، فاجاب بالنفي •

قـالت :

ـ ان هذه الملكة من اهلـي ، وهي فقيرة ، فاذا لم تستطـع جزاؤك توليت انا ذلك •

فشكرها بارداليان ، واخبرها ان الملكة قدّرت خدمته لها ، وشكرته، وقدمت له هدية •

وقد عرضت عليه العمل عندها في جيشها ، فرفض ، لانه يفضل البقاء في باريس ، ولهذا فهو شاكر حامد ، لا يريد شكرا ولا جزاءا جديدا •

عرضت عليه كاترين ان يعمل لها ، واخبرته انها محاطة بالاعداء •

تذكر بارداليان عند ذلك ، الاجتماع السري الذي عقد في الفندق ، وسمع من خلال الباب ما دار فيه ، وقدّر ان الملكة لا بد ان تكون تقصد هؤلاء الاشخاص الذي اجتمعوا للتآمر على الملك وعرشه •

وكم كان عجبه شديدا لما ذكرت له الملكة شخصا آخر ، وهو الشاب الذي زاره من قبل ملكة نافار ..

وكان ان رفض بارداليان ما كلفته الملكة به من مبارزة هـذا الشاب وقتله . لانه اصبح صديقه ، وقد شاركه في طعامه وشرابه .

سألتـــه :

ــ ما اسم هذا الرجل ؟

ــ لا ادري .

ــ كيف لا تدري ؟.. ايكون صديقك وانت لا تعرف اسمه ؟.

فقال بارداليان :

ــ انه لم يذكر اسمه ، ولم اسأله عنه ، وليس يختلف حالي عن حالك يا سيدتي ، فانت تجهلين اسمه ايضا . وتقولين انه عدوك .

فقالت الملكة لنفسها :

ــ ان هذا الرجل اشد عليّ من كل اعدائي .

ثم نهضت وقالت :

ــ ما دام الامر كذلك ، فلندع هذا الرجل وشأنه اكراما لعواطفك ، واحضر غدا الى اللوفر ، فاني انتظرك فيه .

فلما عادت الملكة الى اللوفر بعد ساعة ، دعت اليها رئيس حراسها .

قـــالت له :

ــ اذهب غدا صباحا على رأس عشرة من رجالك الى فندق ديفنير ، فاقبض فيه على شخص يدعى الشفاليه دي بارداليان ، واذهب به الباستيل .

واما بارداليان فقد عاد الى الفندق يفكر فيما يجب عليه عمله ، بعـد اجتماعه الى الملكة .

قرر الذهاب الى اللوفر لمقابلة الملكة ، وقرر في الوقت نفسه ان يذهب

الى قصر كوليني ، ليخبر صديقه ديودات بان عليه مبارحة باريس حـالا حتى لا تطاله يد الملكة وتقتله •

وقرر ان يتحرش بالدوق دي كيز ويقاتله فيخدم الملكة وتغفر لـه رفضه لما طلبته منه من قتل (ديودات) •

واخيرا وحين يطمئن الى مركزه الجديد في اللوفر الذي وعدته به الملكة يتزوج لويزا ، ويدعو والده اليه ليقضيا بقية حياتهما في هناء وسعادة •

فلما افاق في صباح اليوم التالي ، ووجد ان امامه فسحة من الوقـت قبل الذهاب الى اللوفر •• وقف امام النافذة يراقب منزل لويزا •

وفتحت نافذتها فجأة ، واطلت لويزا منها صفراء الوجه ، باكية العينين، فلما شاهدت بارداليان ، صاحت تناديه :

ــ تعـال •• حالا ••

وثب بارداليان من مقعده، واسرع ليأخذ سيفه المعلقعلى الجدار وهو يقول في نفسه :

ــ رباه •• ماذا حدث ؟

ونبح كلبه في هذه اللحظة ، وكسر باب غرفته ، ودخل منه اثنا عشر جنديـا •

وقال له رئيسهم :

ــ اننا نقبض عليك بأمر الملكة •

حاول بارداليان الدفاع عن نفسه ، فلم يوفق ، فقد كان مجردا مـن سيفه ، وسمع صوت لويزا تناديه •

« اليّ •• الي » فحاول ابعاد الجنود عنه فلم ينجح فقد احاطوا بـه وتمكنوا من تكبيله ، ولكن بعد ان تمكن من قتل واحد منهم ، وخنـق كلبه الثاني ، وعض خمسة بانيابه •

وكان كلب بارداليان مشهورا بالجرأة كسيده ، حتى كان سكان الحي يخافونه كما يخافون الفارس الباسل •

ولما خرجوا به الى الشارع ، شاهد ثلاث عربات احدها امام الفندق فعلم انها لنقله ، واما الباقيتان فقد وقفتا امام منزل لويزا ، والحدة منهما فارغة ، وفي الثانية شاهد هنري دي موتتمورانسي مارشال دامفيل •

ادرك بارداليان الخطر الذي يهدد حبيبته فكاد يجن من يأسه ، حين وجد نفسه عاجزا عن انقاذها ومساعدتها •

وما زالت العربة تسير به ، حتى وقفت امام سجن الباستيل ، فنقلوه الى غرفة في الطابق الثالث من برج السجن ، حيث فكوا قيوده وتركـوه لمصـيره •

حاول ان يحطم الباب بعد ان اقفلوه عليه ، فلم ينجح ، ثم غلبه اليأس والارهاق فسقط على الارض مغميا عليه •

★ ★ ★

كان هنري دي موتتمورانسي بعد ان عرف في صاحبة المنزل جان دي بيانس التي كان لا يزال يحبها ، والذي افسد علاقاتها مع شقيقه زوجها بأكاذيبه ، والذي اختطف ابنتها ليتهمها باشنع التهم ، قد استبد به الخوف والوجل ، مخافة ان يعرف شقيقه مكانها ، وتحدثه بما فعله هنري بها •

فقرر خطفها ووضعها في قصره ، وارسل رجاله لهذا الغرض ، وقالوا لصاحب المنزل ان المرأتين من الهيكونت ، وانهم قد اتوا القبض عليهمـا باسم الملـك •

ولما طرقوا باب جان وفتحت لهم الباب ، واخبروها بغرضهم اجابتهم

انهم من المخطئين ، لانها ليست من الهيكونت •

فدعوها هي وابنتها للذهاب معهم لاثبات برائتهما ، فطلبت منهم مهلة صغيرة لارتداء ملابسها ، فوافق كبيرهم •

وكانت لويزا قد فتحت النافذة ونادت بارداليان ، فسمعتهـا امهـا وسألتها من يكون ••

فأجابتها : لا اعرف اسمه ولكني مؤمنة باخلاصه •• فكتبت عندئـذ الام كتابا له وقعته باسم ذات النقاب الاسود ، تطلب معونته ، وضمـت الى الكتاب كتابا آخر ، كانت كتبته منذ زمن بعيد فوضعته معـه ، في مظروف واحد ، واعطته للخادمة لتسلمه الى الذي يسكن الفندق في الغرفة المقابلة للمنزل •• بعد ذهابهما ، وانبأتها ان التهمة الموجهة اليهما ملفقة ، ولسوف يطلق سراحهما قريبا •

وبعد ان انتهت جـان من ارتداء ملابسها هـي وابنتها ، خرجت مع رجال هنري الى المركبة ، وعندئذ اقبلت الخادمة تخبرها انها عرفت اسم صاحب الغرفة ، وانه يدعى الشفاليه بارداليان فلما سمعت الام هذا الاسم ذعرت ، وحاولت استرجاع الكتاب ، ولكن المركبة تحركت في هذه الساعة فلم توفق •

ولما غابت المركبة عن الانظار ذهبت الخادمة الى الفندق وطلبت مقابلة بارداليـان •

فقال لها صاحب الفندق وهو يضحك :

ــ لا تعلمين ما حدث لهذا الرجل الجسور الهائل ؟

فقـالت :

ــ كـلا •

ــ لقد زجوه في السجن لانه من الهيكونت •

فاضطربت الفتاة وعادت الى البيت فخبأت الكتاب في مكان خفي ••
وهي تقـول :

ــ معاذا الله ان اكون من اعداء الدين •

★ ★ ★

ضاق صدر جان حين وجدت نفسهـا اسيرة في منزل جميل ، مؤثث بأحسن الاثاث ، وقد كانت تنتظر كما توقعت ان تؤخذ الى السجن •

فلما اطلت من نافذة الغرفة التي ادخلوها اليها ، شاهدت بعض الحراس يروحون ويجيئون ، واذا المنزل مسور ، ويقع ضمن حديقة كبيرة ، بحيث لا تطل نوافذه على الشارع ، ولما ذهبت الى الغرفة الثانية عثرت عـلى رسالة موضوعة على المائدة ، فقرأت فيها ما يلي :

« الرجاء ، ان لا تخشى الاسيرتان مكروها ، واذا احتاجتا الى شيء فليقرعا الجرس الموضوع على المائدة ، فتحمل اليهما الخادمة كل ما تطلبان ولن يطول هذا الاسر الا اياما قليلة » •

وتنهدت الام •

وقـالت :

ــ اني افضل السجن على هذا المكان •• فهناك اعرف ما يراد مني •• واما هنا فلا ••

وطلبت جان من فتاتها ان تجلس اليها ، واخبرتها انها تريد ان تقص عليها بعض اسرارها ، واعلمتها انها ابنة فرانسوا دي موتتمورانسي •

فاجفلت الفتاة حين سمعت هذا الاسم الخطير ، وكانت قد سمعت امها

تقول لها اكثر من مرة ، ان نكبتها وشقاءها يعودان الى رجلين احدهما هنري دي مونتمورانسي •

ومضت تقول لها :

« وان هذا الرجل هو عمها ، وهو الذي حاول طعن شقيقه في عرضه في غيابه ، فلم يوفق ، فقرر اختطافك بواسطة وحش من رجاله ، وهددني بانه سيتهمني امام والدك عند عودته من الحرب ، بالخيانة •

فاذا اعترضت وكذبته ، امر الرجل الذي اختطفك بقتلك فسكت حفظا على حياتك •

واما الشخص الذي اختطفك ، فقد اخبرني الرجل الذي اعادك الي بأنه يدعى الشفاليه دي بارداليان ، ولا بد ان يكون والد هذا الشاب الذي تحبينه الآن •

واهتاجت لويزا لما سمعت هذا الكلام ، وضاق صدرها ، فقد كانت تحب الشاب بارداليان حبا عظيما ، فخشيت ان يكون قد سار على خطة والده •

ثم تذكرت انها استنجدت به فلم يلب نداءها ، ولا اتى لرد كيد الاعداء عنها •

وخطر ببالها ان هذا الشاب لا بد ان يكون متعاونا مع الذين اختطفوها •• والا لكان اسرع الى نجدتها •

واخذت تبكي حين وصلت في تفكيرها الى هذا الحد ، فضمتها امها الى صدرها •

وفي هذه اللحظة فتح الباب ودخل هنري دي مونتمورانسي •

★ ★ ★

ذهبت ملكة نافار مع وصيفتها اليس بعد ان ودعت بارداليان الى منزل في سانت جرمين حيث وجدت ثلاثة بانتظارها ، فدعت احدهم قائلة :

ــ تعال يا كونت دي ماريلياك .

وكان هذا الشاب ظاهر الكآبة ، فانحنى امام الملكة وتبعها .

ولما احتوتها الغرفة سألها :

ــ لماذا دعوتني يا سيدتي بهذا اللقب ، وهذا الاسم ؟

فقـــالت :

ــ اليس هو اسمك ؟.. اما منحتك انا هذا اللقب ؟

قـــال :

ــ اني مدين لك بحياتي وثروتي واسمي ، ولكني ادعى (ديودات) وهو عندي افضل من كل لقب ، لاني معروف عند الناس بأني لقيط .

« وانه ليسوءني ان اعلم ان امي هي كاترين دي مديسيس هذه الملكة الغادرة الفاسدة » .

وسمع في الغرفة المجاورة صوت دهشة ورعب ، لم تسمعه الملكة ولا الشاب ، وقد مضت الملكة تهدىء من روع الشاب ، وتخفف مـــن حزنه وتقول له :

ــ يكفيك اني امك بالتبني ، فان قلبي يتسع لحب ولدين .

واخبرته الملكة انها بحاجة اليه لمهمة في باريس ، واخذت تهمس فـــي اذنه بما تريد منه ، حتى اذا فرغت ، ودعها وانصرف .

ودعت الملكة بعدها (اليس) وصيفتها اليهـــا ، واخبرتها انها قررت طردهـــا من خدمتها واعادتها الـــى الملكة كاترين ، بعد ان ثبت لهـــا انها تتجسس عليها .

وذكرت لها حوادث كثيرة من هذا التجسس والوقوف على الابواب،

وكان آخرها اعلان اسمها امام الجماهير في باريس ، وفتح نافذة المركبة ، وقالت اخيرا : اقرأي هذه الرسالة فانها لك •

واخذت الجاسوسة الرسالة وقرأت ما يلي :

« اذا نجحت مهمتك فاحضري غدا الى اللوفر ، واذا لم تنجح فاطلبي اجازة بعذر من الاعذار ، واحضري الى اللوفر بعد ثمانية ايام ، فان الملكة تريد الاجتماع اليك » •

وما كادت تقرأ (اليس) الرسالة حتى مادت الارض بها ، وقالت لها الملكة وهي تشير نحو الباب :

ـ اذهبي •• ولـولا رحمتي ، لدفعت بك الـى قضاتنا ليصدروا حكمهم عليك •

وخرجت الجاسوسة وقد اسودت الدنيا في وجهها •• وشرعت تجري وهي لا تدري الى اين تذهب •

واما الملكة فقد غادرت غرفتها ، واشارت الى الرجلين ، وقالت لهما :

ـ هيا بنا فسنغادر هذا المكان حالا •

وكانت (اليس) في هذه الاثناء قد تولاها ما يشبه الذهول ، فهي لا تدري ما تفعل ولا ما تعمل ، اتعود الي كاترين المخيفة •؟ وتسأل نفسها ، كيف رضيت ان تكون سببا في قتل ملكة نافار ، واي عار ارتكبته ، واي جريمة كانت في سبيلها اليها ؟

واتجهت اخيرا صوب باريس ، وكانت تبعد ساعة عنها ، وكانت ابواب العاصمة قد اقفلت في هـذه الساعة ، فمضت تسير بـين الاشجار ، حتى انتهت الى منزل ينبعث منه النور ، فاسرعت اليه وهي تعبة مرهقة ، فلما وصلته عرفت انه نزل للمسافرين ، فدخلته وهي تصطك من البرد •

دخل بها صاحبه اولا الــى الصالة الدافئة ، وذهب ليعد لها غرفــة تنام فيها .

تلفتت حولها فشاهدت رجلا قد اعطاها ظهره ، يصطلي امام الموقد . وبرق الليل في هذه اللحظة ، واضاء المكان ، فصاحت صيحة دهش حــين عرفت في الرجل (ديودات) .

واستدار الشاب لما سمــع الصيحة ، فلما شاهد اليس اسرع اليهــا وهو يقول :

ولاذت الفتاة بالصمت ، وكانت من اجمل فتيات عصرها .

ما الذي جاء بك لهنا ، ولماذا انت مصفرة الوجه ؟

ــ ما هذا الاتفاق السعيد ، لقد كنت افكر فيك .. تعالي الى النار .

وسألها الشاب عن سبب سكوتها .

واضطرت عند ذلك الى الكذب عليه .. والقول بانها بعد سفر الملكة هربت للحاق به ، فأنكر عليها ذلك ، ولكنه فسر عملها على حبها له .

وقد كان يحبها حبا جما ، وهي كذلك كانت صادقة في حبها لــه .. فأخذ يقبلها وتقبله وتقول له :

ــ هلم بنا نهرب من هذه البلاد ايها الحبيب .

وكانت تقول هذا الكلام والرعب باد على وجهها .. ولحظ الشاب ذلك ، فسألها عن سببه ، فردته الى حبها له ، وخوفها عليه ، ودعته الــى مغادرة هذه البلاد معها .

فــأجابها :

ــ انه لو كان يملك امره لفعل ، ولكنه سيحدثها في المستقبل عــن سره ومولده .

وكانت (اليس) قد عرفت سره ، لما كانت تسترق السمع عند بــاب

الغرفة التي كان يتحدث فيها مع الملكة ، وختم حديثه بان ملكة نـافار التي هو مدين لها بحياته وشرفه وسعادته، تحتاجه ولا يستطيع فراقها الآن.

وسألها الذهاب معه الى باريس ، حيث يقيم في منزل الاميرال كوليني الذي يعرفه .. وقررت اليس وهي تفكر في موقفها التخلص مـن خدمة الملكة كاترين ، لانها خدمة لا تتناسب مع اغراض حبيبها الشاب .

ولما اصبح الصباح ، وعرض عليها ان يذهب بها مرة ثانية الى منزل الاميرال ، اعترضت وقالت : انها تفضل الاقامة في منزل صديقة تعرفها ، فوافق ، على ان يزورها مرتين في الاسبوع .

ولقد استقبلت صاحبة البيت (اليس بالترحاب) ، وسألتها عن شأنها، فأجابت بانها في اسوأ حال من الدسائس والخيانات ، وطلبت منهـا دواء مقويا ، فأعطتها اياه ، فانتعشت واخذت تتأمل القاعة ، ثم صاحت تطلب من (لورا) صاحبة المنزل ، ان تنزع الصورة المعلقة ، وكانت صورة هنري دي مونتمورانسي .

فصعدت لورا على كرسي ، ونزعت الصورة واحرقتها امامها .

واخيرا قالت لها اليس :

ـ سيحضر شاب يوم الجمعة مساء الى هنا .. وقد قلت له انك عمتي .. وهو سيأتي مرتين في الاسبوع ، الجمعة والاثنين .

فقالت لورا :

ـ كما كان يفعل الآخر ؟

ـ نعم .. لاني لا اكون حرة الا في هذه اليومين .

ـ العله خير من المارشال ؟

ـ لقد كان المارشال عشيقي ، واما هذا الشاب فأحبه .. ولم احـب رجلا قبله .

فقالت لـورا :

ـ والرجل الذي كان قبل المارشال ؟

ـ اتريدين المركيز دي باني غارولا ؟

ـ نعـم •

ـ اتعلمين ما جرى له ؟• لقد انضم الى رجال الكنيسة ، واصبح من كبار الوعاظ •• تحمسا وغيرة على الدين •

فذهلت (اليس) وسألتها :

ـ وفي اي دير يقيم ؟•

ـ في دير جبل القديسة جنفياف •• والنساء يعترفن له بكثرة ، وقد علمت انه كثير التسامح •• يغفر لكل من يعترف امامه •

ـ اذاً فيجب ان تذهبي اليه ، وتحمليه على سماع اعترافي •

وعظم فضول (لورا) لمعرفة سر هذه الفتاة الجميلة ، وسألتهـا عن الشاب الجديد •

فقالت (اليس) :

ـ لم يحن الوقت للبوح باسمه •• لان هذا الاسم سر هائل ، ولتعلمي اني احبه واعبده ، واضحي بنفسي في سبيله ، وليس يروعني الا اني لست من اكفائه ، وانه يعتقد اني طاهرة نقية ، وانا كما تعلمين •

« وليس يهمني الان غير التخلص من خدمة كاترين الملكة الجـائرة التي جعلتني العوبة في يدها ، وجاسوسة عند اعدائها ، الذين تقذف بهم بعد ذلك في اعماق السجون » •

واخذت الفتاة تبكي ، وراحت لورا تهدىء من روعها ، ووعدتها ان ترتب لها موعدا للاعتراف عند الراهب يوم السبت القادم ، وسألتها •• متى ستذهبين الى اللوفر ، فقالت :

ـــ سوف اذهب اليه في مساء اليوم الذي اعترف به للراهب .

وعند منتصف الليل ، وفيما كانت (اليس) نائمة في غرفتها ، غادرت لورا المنزل ، وذهبت الى القصر الذي بنته (كاترين) للفلكي ، وصعدت الى برجه ، حيث وجدت كوة القت رسالة فيها .. ثم عادت من حيث اتت.

- ٧ -

الخروج من الباستيل

ذهب (بيبو) كلب بارداليان بعد ان فشل في المدافعة عن سيده مع الجنود الى سجن الباستيل وجعل يدور حوله وينبح •

فلما لم يجد منفذا ينفذ منه الى داخل السجن ، صعد الى قمة تبعد عشرين خطوة عن السجن وجلس فوقها ، حتى اذا اقبل الليل عاد الى الفندق ، وسرق ما وجده من الاكل فيه ، ثم عاد الى مكانه ينتظر سيده •• او يرجو مشاهدته وسماع كلمة منه •

وكان بارداليان قد ضاق صدره واسقط في يده لما اقفلوا غرفة السجن عليه •

وفكر في (لويزا) التي نادته لنجدتها ، فتجهم وجهه واسودت الدنيا في عينيه ، وعاد الى الباب يهزه بيديه يريد ان يكسره فلا يوفق ويرتدخائبا•

وتقطعت ايام وهو يفكر في مصيره ، وكيف ان من يدخل الباستيل لا يخرج منه ، ويسأل نفسه من يكون الشخص الذي امر بالقبض عليه، العله الدوق دي انجو شقيق الملك ، الذي اختلف معه امام باب لويزا ، ام الدوق دي كيز الذي وقف على سره •؟

ولكن كيف عرف الدوق انه وقف على سره ، وهو لم يتحدث به الى احد .

ولم يخطر بباله ان الملكة كاترين قد تكون الفاعلة لانها كانت راضية عنه ، عند مغادرته لها .

وفي اليوم التالي سأل بارداليان السجان عن السبب في سجنه ، فرفض السجان ان يكلمه ، فهجم عليه بارداليان يريد الامساك به ولكن هذا اسرع منه الى الباب فخرج واقفله خلفه .

وبعد قليل اقبل حاكم السجن ومعه عدد من الجنود ، فلما شاهد بارداليان الرجل عرفه ، لانه كان بين المتآمرين ضد الملك ، فهدأ روعه وثبت في مكانه .

ومضى الحاكم ينصحه بالهدوء والصبر ، او يضطر لنقله الى غرفة في اسفل السجن ضيقة مظلمة ، ويسأله ان لا يحاول الاعتداء مرة ثانية على سجانه ، وان لا يقرع الباب بيده ليلا ونهارا .

وخطرت لبارداليان فكرة جديدة فطلب من الحاكم ورقا وقلما .

فقال له الحاكم :

ــ الكتابة ممنوعة في السجن .

ــ اريد ان ابوح بسر عظيم .

فاهتاج الحاكم لما سمعه ، وسأله المزيد من هذا السر .

فقال :

ــ لقد اكتشفت مؤامرة بطريق الصدفة .. يقوم بها بعض الهيكنوت ضد الدوق دي كيز وغيره من كبار رجالنا .. فان اذنت لي بكتابة ما اعلمه من اسرار هذه المؤامرة ، فقد يعمل الدوق على مساعدتي لانقاذه .. ويأمر باخراجي من السجن .

فقال الحاكم ؟

ـ اذا كان ما تقوله حقا فان العفو عنك لن يتأخر ، والامر خطير .

ووافق الحاكم على ان يسمح لبارداليان بكتابة قصة المؤامرة ، على ان يفيد منهـا لنفسه ويتقدم بها الى الدوق توطيدا لمركزه ، ثـم يبعث بالفارس الى احد السجون العميقة في الباستيل .. فلا يطيق الحياة فيها اكثر من شهر واحد .

وحملوا الى بارداليان ورقة وقلما ، واخذ الفارس يروح ويغدو في غرفته وهو يرتب خطته ، ثم وقف على الطاولة الموضوعة في غرفته ، واخذ ينظر من النافذة الى ما حوله من الارض ، فشاهد كلبه يقف بعيدا ، ففرح فرحا عظيما ونزل عن المائدة حيث كتب على ورقة من الورق الذي احضره له السجان بضعة اسطر ، ثم وضعها في قبعته ، ثم اخذ ورقة ثانية وضع فيها قطـعة صغيرة من الحجر ، ولف الورقـة حولها فاصبحت تشبـه الطابة الصغيرة .

وعاد الى النافذة فنادى كلبـه ، والقى اليه بالورقة ، فاسرع هـذا لالتقاطها .

وشاهده الحراس فجدّوا في اثره ، ولكنه تمكن من الافلات منهم .

ولما اطمأن الى انه اصبح بعيدا عنهم ، القى الورقة من فمه ، واخـذ يلعب بها ، فلما لم يجد فيها ما يؤكل ، تركها وعاد الى الرابية القريبة من السجن ينظر ويراقب .

★ ★ ★

سمع بارداليان ضجة في الرواق ، ثم فتح باب السجن بعنف ، ودخل الحاكم وخلفه جنوده ، وهو يصيح :

ـ ماذا كتبت في الورقة التي القيتها الى الكلب من النافذة ؟

وتنهد بارداليان وقال في نفسه :

ـ لقد نجوت .

ومضى الحاكم يقول :

ـ لا تحاول ان تقول انك لم تفعل لقد سمعك الحراس تنادي الكلب، ثم شاهدوك تقذف الورقة اليه ، فجروا خلفه فلم يوفقوا الى امساكه .

فقال بارداليان :

ـ اني اعترف بما تقوله ، وازيد على ذلك ان كلبي قد تمرن على نقل رسائلي الى اصحابي بهذه الطريقة .

ـ لمن ارسلت الرسالة ؟

ـ لقد ارسلتها الى شخص ليسلمها الى شخص آخر .

ـ من يكون هذا الشخص الآخر ؟

ـ انه سر لا استطيع ان ابوح به الا لك وحدك .

فقال الحاكم :

ـ بل يجب عليك ان تخبرني باسمه .

ـ اذاً فاعلم اني كتبت هذه الرسالة الى شخص كانوا يبحثـون في مصيره منذ ايام في احد فنادق باريس القائم في شارع دنيس ، وكنت انـا في هذا الفندق فسمعت ما سمعت وشاهدت ما شاهدت .

واصفر وجه الحاكم لما سمع هـذا الجواب ، وامر جنـوده بمغادرة الغرفة ثم اقفل الباب خلفهم وقال لبارداليان :

ـ والآن تكلم .

فقال بارداليان :

ـ سألتني عن اسم الشخص الذي ارسلت اليه رسالتي •• اذاً فاعلم انه ملك فرنسا •

وذعر الحاكم وكاد يسقط من الخوف وقال بصوت مرتجف :

ـ الملك ؟

ـ نعم الملك نفسه •• واذا اردت معرفة ما كتبته اليه فاقرأ هذه الورقة التي هي صورة طبق الاصل عن الرسالة التي ارسلتها اليه •

وتناول الحاكم الرسالة بيد ترتجف وقرأ فيها ما يلي :

« اتشرف باخبار جلالة الملك انهم يتآمرون على قتله ، وان المؤتمرين عليه هم الدوق دي كيز ، وهنري دي مونتمورانسي ، ودي تافان رئيس حرس اللوفر ، وحاكم الباستيل ، واذا اراد جلالته مزيدا من المعلومات والتأكد من صدق المؤامرة فليسأل حاكم الباستيل الذي كان اشدهم تحمسا ضده •

وكان اخر اجتماع عقد المؤتمرون في فندق ديفنسير في شارع سانت دنيس » •

فانهارت عزائم الحاكم واوشك ان يسقط ارضا ، وقال :

ـ ويلاه لقد اصبحت من الهالكين •

فقال له بارداليان :

ـ ان لكل داء دواء فتشجع فان هناك سبيلا لانقاذك •

واخذ الحاكم يهدده بالويل والثبور ، وبارداليان يحاول تهدئة روعه، ويطمئنه ان بالامكان انقاذه ، فلما سأله الحاكم عن الطريقة ، قال له بارداليان :

ـ لن تصل الرسالة الى الملك قبل الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم،

وقد اخبرت صديقي ان يرسلها الى الملك بطريقة خاصة اذا لم ازره في منزله قبل هذا الوقت •

فقال الحاكم :

ـ اتريد ان تهرب ولا سبيل الى هذا •

ـ عليك ان تعثر على طريقة اخرج بها من هذا السجن قبل فوات الاوان •• فاذهب الى صديقي وآخذ منه الرسالة وينتهي الامر ، ويزول الخطر •

فقال الحاكم :

ـ من يضمن لي صدقك ووفاءك •

ـ اقسم لك اني سافي بما وعدتك بـه ، ثم اني لا اجد سبيلا الى سلامتك الا بهذه الطريقة •

« واما انا فاني سأخرج من السجن بعد يوم او يومين ، وحين تصل رسالتي الى الملك » •

وادرك الحاكم عندئذ ان ما يقوله بارداليان حق ، فقال له :

ـ سوف افعل فانتظرني •

وغادر الغرفة الى مكتبه حيث طلب عربته الخاصة ، وغادر السجن قائلا •• انه في طريقه الى البلاط •

وبعد ان جلس فيها نصف ساعة ، عاد فاطلق سراح بارداليان ، بحجة ان هذا السجين قد خدم جلالة الملك ، وان جلالته قد عفا عنه •

وكان اول ما فعله بارداليان بعد خروجه من السجن ان ذهب الى منزل (جان) يستطلع اخبار المرأتين فحدثته الخادمة التي دهشت لعودته بما حدث وكيف ان جنودا لا تعرف صفتهم قد اخذوا السيدتين •

واعطته الرسالة التي كلفتها سيدتها بتسليمها له ، وكانت مؤلفة من

رسالتين واحدة باسمه ، والثانية باسم الدوق فرانسوا دي مونتمورانسي.
وقد قصت (جان) في رسالتها الى زوجها الدوق قصتها كاملة غير منقوصة .

كيف حاول شقيقه الاعتداء عليها فرفضته وردته ، فطردها من البيت.

وكيف مرضت بعد وضع ابنتها ، فلما شفيت من مرضها وعلمت بقرب عودة زوجها ، تأهبت لاستقباله ، فانذرها شقيقه بعد ان خطف ابنتها بانه سوف يقتل فتاتها ان حاولت تبرئة نفسها ، فكان ان اضطرت للسكوت امام اكاذيبه وافترآته رحمة بابنتها ، وما جرى لها بعد ذلك من الحوادث والوقائع .

وكيف ذهبت الى باريس بعد ان فارقها زوجها ، لتعيش من اعمال التطريز .. وتقوم على تربية ابنتها والمحافظة على حياتها .

وما كاد يصل بارداليان الى نهاية الرسالة حتى خارت قواه ، واخذ يبكي حزنا على ما اصاب هذه المرأة المسكينة ، وخجلا من الدور الذي لعبه والده في هذه القصة .

وكانت الرسالة مؤرخة في العشرين من شهر آب سنة ١٥٥٨ ، وفي نفس اليوم الذي تزوج فيه فرانسوا دي مونتمورانسي ديانا دي فرانس ابنة هنري الثاني ، اي منذ اربعة عشر عاما .

وضاق صدر الشاب واحتبست انفاسه .

ان الفتاة لا بد ان تكرهه حين تعرف ان والده هو الذي خطفها .

وهي الى ذلك من عائلة نبيلة وابوها اعظم دوق في المملكة فكيف يطمع مثله فيها ؟

لم يبق عليه الا ان يبكي احلامه ويعود الى رشده ، ويترك الام وابنتها الى مصيرهما ، بعد ان اصبح لا شأن له بهما .

وفكر طويلا في حالته الحاضرة .

انه محاط بالاعـداء من جميع الجهات ، فهو قـد رفض التعاون مع الملكة ، ومع الدوق دي كيز ، كما ان الدوق دي انجو ، شقيق الملك مـن الد اعدائه ، بعد ان هدده وهاجم رجاله دفاعا عن لويزا .

واحس انه في حاجة الى الهواء الطلق ، فخرج يجوب باريس .

وبعد ساعة من الزمن وجد نفسه يقف امام نهر السين ، وامـام قصر اللوفر ، وقصر اسرة مونتمورانسي القريب .. فاضطرب وحاول الابتعاد عن المكان ، فلم يستطع ، واحس كانه قد سمّر في مكانه ، او كأن شيئا يجذبه الى القصر نفسه .

★★★

ذهبت اليس تعترف الى الراهب كليمانت جاك دي بانيكار ، وكـان لها محبا قبل ان يصبح راهبا ، فعلمت منه ان فتاها الذي ولدته منه لـم يمت كما اخبرها قبلا ، وانه لا يزال حيا ، وقد دعاه جاك كليمانت ، وهو يتربى الآن في احد اديرة باريس ، وعتب عليها الراهب موقفها مـن طفلها ورضاها بقتله حين ولدته ، اخفاء لجرمها .

وانه انما حرمها من طفلها ، لانها تظاهرت امامه بالحب والغرام .

وهي لم تكن في الواقع غير جاسوسة ارسلتها الملكة كاترين لتتجسس عليه وعلى حزب مونتمورانسي .

وقد اعترفت (اليس) للراهب بهذه الحقيقة ، وطلبت منه ، العفو بعد ان تابت وقررت سلـوك طريق الرشاد ، وعـدم التعاون مـع كاترين في المستقبل .. وانها تريد منه فقط ان يعيد اليها الكتاب الذي تعترف فيـه بانها طلبت قتل ابنها ، وهو الآن عند الملكة تهددها بنشره حين تحـاول رفض طلب من مطاليبها .. وهو يستطيع استرداده من الملكة التي تحبه وتثق به .

سألها الراهب عن السبب الذي يدعوها لاسترجاع الكتاب ، فأخبرته

بحبها لديودات ، وانها تريد ان تبدأ حياة جديدة ، بعيدا عـن السياسة والجاسوسية •

ولكن الغيرة استبدت بالراهب فرفض مساعدتها ، وطلب لها المزيـد من الغواية والفجور ، فاسقط في يدها ، وأغمي عليها •

فلما عادت الى رشدها بعد ان نقلتها (لورا) الى المنزل •

اخذت تفكر في موقفها ، وقررت الدفاع حتى النهاية عن حبها •

وكان عليها ان تتمالك اعصابها ، وترتصد الفرصة السانحة ، وحتى تسنح هذه الفرصة ، كان عليها ان تذهب لمقابلة الملكة التي دعتها اليها •

وكانت الملكة كاترين بعد ان فشلت في قتل خصيمتها ملكة النافار ، التي كانت تخشى منها ومن ولدها على عرش فرنسا ، قد قررت تـدبير مكيدة جديدة ، تمزق الهيكونت ، وتشرد زعماءهم •

وكان اشد زعماء الهيكونت بأسا وخطرا ، الاميرال كوليني، وهنري دي بيران ، ابن ملكة النافار ، فتحدثت الى ابنها الملك شارل بتعيين الاميرال لقيادة جيش يذهب الى هولندا لحماية ابناء مذهبه هناك ، وتزويج هنري بمرغريت اخت الملك •

وسر" الملك بهـذا الحـل السلمي البديع ، لانـه كان يكره الحرب والمذابح التي كانت تدبرهما امه ، ويفضل السلام والسعادة للجميع •• خصوصا وانـه لم يكن يعتقد ان الهيكونت يريـدون شرا بعرشه ، وان الناس الذين حوله ، هم الذين يحاولون اثارتهم واستفزازهم وذبحهم •

وبعد ان انتهت كاترين من التحدث الى الملـك ابنها واقناعه برأيهـا استقبلت اليس جاسوستها ، فأخبرتها هذه بان ملكة النافار عرفت سرها، وطردتها من قصرها •• وان كتاب الملكة كاترين الى اليس ، قد وقع في يد ملكة النافار ، فأكدت كل شكوكها السابقة بشأنها ، فهي والحالة هذه ، لم تعد تستطيع خدمتها عندها •

فقالت لها الملكة :

ـ اني لن اكلفك بالاتصال بملكة النافار بعد اليوم ، ولكن عليك اغواء احد اعدائي ، بل هو اشدهم خطرا •• وهو الآن في باريس •

سألتها (اليس) عن اسم هذا الرجل •

فقالت :

ـ انه الكونت دي ماريلياك •

وكادت (اليس) تسقط ارضا من هول الصدمة ، فقد كان هذا هو لقب (ديودات) الذي تحبه وتعبده ، وادركت الملكة ما الم بها •

ولكن اليس حاولت اخفاء سرها ، وركعت عند قدمي الملكة ترجوها اعفاءها من هذه المهمة الجديدة ، ولكن الملكة هددتها بنشر الرسالة التي تعترف فيها بأنها حاولت وقبلت بقتل جنينها •

وعقوبة هذا العمل الاعدام ، فقبلت (اليس) مرغمة بالمهمة الجديدة ، ودعت عندئذ الملكة قائد حرسها المسيو (نانسي) وقالت له :

ـ انك تعرف السيدة اليس دي ليكس •• وهي قد تحتاج اليك والى رجالك في يوم من هذه الايام ، فامتثل لاوامرها واقبض على كل رجل تسألك القبض عليه •

وحنى رئيس الحرس رأسه وغادر الغرفة •

فالتفت عندئذ الملكة الى (اليس) وقالت لها :

ـ اذا خدعتني هذه المرة ، فلن اعاقبك بتسليم رسالتك واعترافك الى القاضي ، بل الى شخص اخر ، بعد ان اضيف اليه تاريخ حياتك •

سألتها :

ـ الى من تسلمينها يا سيدتي ؟

ـ الى الكونت دي ماريلياك •

وصاحت (اليس) صيحة ذعر ، وسقطت على الارض مغمى عليها •

انتهى هذا الكتاب

الفهرس